الطيّب صالح



مختارات

١

منسي: إنسان نادر على طريقته!



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

١ ـ منسي: إنسان نادر على طريقته!

الطيب صالح

مختارات

١

منسي: إنسان نادر على طريقته!



SELECTIONS

1. Mansi

on His own Way-A Remarkable Being

By

El Tayeb Salih

First Published in November 2004
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21166-4

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٤

الإهداء

إلى روح أحمد منسي
يوسف مايكل بشطاوروس

١

في مثل هذا الوقت من العام الماضي توفي رجل لم يكن مهماً بموازين الدنيا، ولكنه كان مهماً في عرف ناس قليلين، مثلي، قبلوه على عواهنه، وأحبوه على علاّته. رجل قطع رحلة الحياة القصيرة وثباً وشغل مساحة أكبر مما كان متاحاً له، وأحدث في حدود العالم الذي تحرك فيه، ضوضاء عظيمة. حمل عدة أسماء، أحمد منسي يوسف، ومنسي يوسف بسطاوروس، ومايكل جوزف. ومثّل على مسرح الحياة عدّة أدوار، حمالاً وممرضاً ومدرّساً وممثلاً ومترجماً وكاتباً وأستاذاً جامعياً ورجل أعمال ومهرجاً. ولد على ملّة ومات على ملّة. ترك أبناء مسيحيين وأرملة وأبناء مسلمين. حين عرفته أول مرة، كان فقيراً معدماً، ولما مات ترك مزرعة من مائتي فدان من أجود الأراضي في جنوب إنجلترا، وقصراً ذا أجنحة، وحمام سباحة، واسطبلات خيل، وسيارة «رولزرويس» و«كاديلاك» و«مرسيدس»

و«جاغوار» وماركات أخرى. وخلف أيضاً مزرعة من مائة فدان في ولاية «فرجينيا» بالولايات المتحدة ومطعماً وشركة سياحة.

لمّا بلغني نبأ وفاته، اتصلت بداره في «ثاتشبري» في ضواحي ساوثهامبتون» بإنجلترا. أجابني صوت أميركي لشاب، هو ابنه الأكبر «سايمون» علمت منه أن الموت أخذ أباه على حين غرّة وهو في أوج الصحة والعافية، فأصيب بسرطان الكبد الذي قضى عليه خلال أسابيع، وكنت وقتها في السودان. ثم خطر لي أن أسأله كيف دفن أبوه فأخبرني أنهم لم يدفنوه بعد، وكان قد مضى على موته نحو عشرة أيام، وأنهم ينتظرون أن تتم الإجراءات لحرق جثمانه.

قلت له «ولكن أباك رجل مسلم، وحرق الجثمان محرم عند المسلمين».
فأجابني « نحن لا نعلم عن إسلامه شيئاً. الذي نعلمه أن والدنا كان مسيحياً، وكان يقول لنا «حين أموت أحرقوا جثماني».

قلت له «اسمع. لا يوجد أدنى شك أن أباك كان مسلماً، وأنا شاهد على ذلك. إنه أمر خطير أن تحرقوا جثمان رجل مسلم. وتذكر أن أباك خلف أرملة مسلمة ولكم منها أخ مسلم. إذا قلتم إنه لم يكن مسلماً فمعنى هذا أن زواجه هذا كان باطلاً».

اتصلت بزوجته في الرياض فاستغاثت بوزارة الخارجية السعودية التي سارعت بالتدخل، فحسم الأمر، ودفن «منسي» ـ كما كنا نسميه ـ كمسلم، وأقيمت عليه شعائر المسلمين، وذلك بعد نحو شهر من موته. ومع ذلك نشرت صحيفة «الأهرام» أن أهله في مصر أقاموا القدّاس على روحه في الكنيسة القبطية. ورغم حزني عليه فقد

ضحكت. قلت هكذا «منسي» لغز في حياته ولغز في مماته. لقد أربك الناس حوله وهو حي، وها هو يربكهم وهو ميت. كانت الحياة بالنسبة له، نكتة كبيرة، وضحكة متصلة لا تنقطع. كانت الحياة، سلسلة من «شغل الحلبسة» كما كان يقول.

ولد ونشأ قبطياً في بلدة «ملاوي» في عمق صعيد مصر. وكان يقول لنا إنه كان يقضي معظم أوقاته مع أطفال المسلمين من سنه، فنشأ أقرب إلى المسلمين. توفيت والدته وهو بعد صبي، وكان أكبر إخوته، وتزوج أبوه وأنجب بعدها. وهذه حقيقة مهمة في حياته. كانوا فقراء مستورين ولم تكن الحياة سهلة. وصل الجامعة بعد جهد، فدرس اللّغة الإنجليزية في جامعة الإسكندرية فأتقنها، لفظاً ومعنى، بشكل لافت للنظر، وكان أضرابه قليلين في إتقانه للغة الإنجليزية بين من عرفت من العرب. كان صعباً أن يقتنع الناس أن «منسي» في عبثه وهذره يمكن أن يتقن أي شيء. وقد قضيت كل سنوات معرفتي له، أحاول أن أقنع الناس، أنه إنسان عنده مواهب، وأنه يتقن أشياء كثيرة. قاده حبه للغة الإنجليزية بطبيعة الحال، إلى إنجلترا، فوصلها العام ٥٢، بعد سلسلة من المغامرات والألاعيب وال«أونطة» وانخرط في الدراسة في جامعة ليفربول. كان فقيراً لا يملك قوت يومه، فكان يدرس ويعمل، فعمل حمّالاً وغاسلاً للصحون في المطاعم، وممرضاً. ثم انتقل إلى لندن. وكان في كل تحركاته كما أخبرنا فيما بعد، يستعين بالجمعيات الخيرية والهيئات الكنسية ويلعب على كل الحبال.

عرفته العام ٥٣، أول عهدي بهيئة الإذاعة البريطانية، فكنا نعطيه أشياء يكتبها أو يترجمها وأدواراً صغيرة في التمثيليات الإذاعية تعينه على العيش والدراسة. ظل طول حياته يحب التمثيل، وحتى بعد أن

أثرى، كان يأتي إلى الإذاعة، يؤدي أدواراً في التمثيليات، ويصر على تقاضي الأجر. وكنت أقول له «أنت ممثل جيد في الحياة، ولكنك ممثل فاشل في الفن».

قبل أن تتوثق صلتي به في تلك الأيام، زارني ذات يوم في داري، وكان يسكن مني غير بعيد في حي «فلهام» وأنا في حي «ساوث كنزنجتون». قدم لي زوج جوارب من نوع رخيص. قلت له:

«ما هذا؟»

«هدية»

«وما هي المناسبة؟»
قال ضاحكاً:

«بمناسبة عيد ميلادك»
أي عيد ميلاد؟ يا أخي اليوم ليس عيد ميلادي. وافرض أنه عيد ميلادي. هذه رشوة».
قال ضاحكاً:

«يعني...»
«الله يخيبك. يعني حين تريد أن ترشوني، تعطيني رشوة لا تزيد قيمتها عن شلنين؟».
لم يبد عليه أي شعور بالحرج، وقد كانت تلك من ميزاته الكبرى في الحياة، أنه لا يخجل ولا يهاب ولا يبالي ولا يحس بالحرج. قال لي وهو يضحك من أعماق قلبه، بطريقة طفولية كانت من مقومات جاذبيته:
«قلت اجرب. مين عارف؟»

لكننا أصبحنا صديقين حميمين بعد ذلك، بل إنني من بين سائر

أصدقائنا المشتركين، أصبحت بمثابة «أب روحي» له، رغم أننا كنا من سن واحدة، ربما لأن الآخرين، عبد المنعم الرفاعي، وأكرم صالح، وعبد الحي عبد الله، ونديم صوالحة وغيرهم، كانوا، على حبهم له، يعاملونه بفظاظة، ولا يأخذونه مأخذ الجد.

٢

لو أن قامة «منسي» كانت أقصر ببوصة واحدة أو بوصتين، لأصبح قزماً. ومع تقدم السن، ترهّل جسمه، وصار له كرش كبير، ومؤخرة بارزة، فكأنك تنظر إلى كرة شقّت نصفين، نصف أعلى ونصف أسفل. وكان شديد العناية بمظهره، يلبس قمصان الحرير، والـ«بدل» الفاخرة، يحصل عليها بأثمان بخسة. كان بادئ الأمر يفصّل ثيابه عند «ترزي» في نواحي «هولبورن»، وكان هذا يحصل على القماش بسعر الجملة من محلات «دورْمَيْ» المعروفة في «بيكاديللي». وذات يوم انشغل فتطوع «منسي» ليحضر له القماش، فأعطاه الرجل بطاقته، واستغل «منسي» الفرصة فسجل اسمه عند «دورميي» على أنه «ترزي» وحصل على بطاقة، وأصبح بعد ذلك يحصل على القماش بسعر الجملة بهذه الصفة. وأشهد أن «منسي» كان كريماً معنا، فكنا نذهب معه إلى «دورميي» ونشتري ما يلزمنا بسعر

الجملة. كذلك اكتشف «منسي» بقدرته الخارقة على الاكتشاف، ترزياً ماهراً في منطقة الـ«إيست أند» الفقيرة، يتقاضى ربع الأسعار التي يتقاضاها الترزية في وسط لندن، فأصبح يفصل ثيابه عنده. حتى بعد أن هاجر إلى أميركا وفتح الله عليه هناك، كان يحضر خصيصاً إلى لندن، فيشتري القماش من «دورميي» ويفصله عند صاحبه ذاك في الـ«إيست أند». كان يقتني البدل والقمصان بالعشرات دفعة واحدة. ولا بد أنه ترك كميات كبيرة منها بعد موته. لن يستفيد منها أحد لسوء الحظ، لأنني أشك أن يكون في كل هذا العالم الطويل العريض، شخص واحد مثل «منسي».

ومع ذلك لم يعدم طوال حياته نساء يحببْنه، بعضهن كن جميلات جمالاً بيّناً، فارعات، تراه يختال إلى جانب الواحدة منهن، فكأن نخلة إلى جانب شجرة الدُّومْ. كان وجهه صبيحاً يميل إلى الاستدارة تزحمه عينان واسعتان وقحتان يركزهما على محدثه طول الوقت، دون أن يطرف له جفن. وكانت تلك حيلة نعرفها عنه، فكنا نعابثه بوسائل شتى، وكان سريع الضحك، فلا يلبث وجهه أن يتكسّر بضحك طفولي. هذا مع سرعة بديهة وتملّك تام لناصية اللغة الإنجليزية، وقدرة عجيبة في الذهاب بها كلَّ مذهب. وكان جريئاً، يقتحم الناس اقتحاماً، ويرفع الكلفة فوراً كأنه يعرف الشخص من زمن، وكأن هذا الشخص مهما علا شأنه دونه مرتبة. رافقني إلى حفل تخرجي من الجامعة، فقابل لأول مرة، سفيراً عربياً وزوجته، وكانا من أسرة حاكمة. انشغلت عنه فترة ولما عدت إليه، وجدته قد أوقف الرجل وزوجته، ووقف هو بينهما، يضرب الرجل على كتفه مرة، ويضرب السيدة على كتفها مرة، ويقول وهو يقهقه بالضحك:

«آه. اتكلموا كمان، والله لهجتكم ظريفة جداً».
جررته عنهما، وقلت له: ـ
«أنت مجنون؟ ألا تعرف هؤلاء؟».
«حيكونوا مين يعني؟».
ولما أفهمته، قال: ـ
«وإيه يعني؟».
كانت الوقاحة تنفعه أحياناً ـ وتضره أحياناً، ولكنها كانت تسعفه مع النساء في الغالب.

حكى لنا أوائل معرفتنا به، أنه أحب فتاة في ليفربول حباً ملك عليه نفسه، وقد خطبها وحدَّدا موعد الزواج. ولكنها ماتت موتاً مأساوياً في حادث سيارة. قال إنها كانت حبه الأول والأخير، وأنه لن يتزوج بعدها، وسوف يظل وفيّاً لذكراها إلى الأبد. كانت طريقته عجيبة في الحزن، يقول لك إنه حزين، ولكن لا تبدو عليه أية علامات للحزن. لم يمض وقت طويل حين جاء يخبرنا أنه قد تزوج. دهشنا دهشة عظيمة، ثم تأكدنا أنه قد تزوج بالفعل فتاة من أسرة إنجليزية عريقة تنحدر من سُلالة سير تُوماسْ مورْ. بعضنا كان يعرف من هو سير توماس مور. والذين لم يسمعوا به من قبل أعطوا «منسي» الفرصة ليتباهى أمامنا جميعاً، فشرح للذين يعرفون وللذين لا يعرفون من هو سير توماس مور بلغة إنجليزية متقعِّرة وكأننا في فصل دراسي: ـ

«سير توماس مور جد زوجتي العزيزة هو الوزير الفيلسوف مؤلف كتاب «يُوتوبْيا».. أنت يا عبد الحي جاهل، طبعاً لم تسمع بكتاب «يوتوبيا». كان الوزير الأول للملك هنري الثامن، نعم، الملك الشهير الذي تزوج ست زوجات. أمر الملك بإعدامه لأنه رفض أن يؤدي له

قسم الولاء حين فصل الملك هنري الكنيسة الإنجليزية عن سلطة الفاتيكان في روما. كذلك رفض سير توماس مور أن يطلق الملك زوجته كاترين أوفْ أراجون ليتزوج من آن بولين، فاهمين يا جهلة؟ آه سير توماس مور هو بطل المسرحية التي ألفها روبرت بولْت عنه، مسرحية «رجل لكل المواسم». هذا باختصار هو الرجل الذي تنحدر من سلالته زوجتنا العزيزة».

في مثل هذه المواقف يكون «منسي» في أحسن حالاته. يستعرض إجادته للغة الإنجليزية، ودقة معرفته بتاريخ الإنجليز. وها هو الآن يجد سبباً إضافياً أنه هو شخصياً قد أصبح جزءاً من تاريخ الإنجليز. وازداد عجبنا حين علمنا أن «العروس» بالإضافة لكل هذا، فهي أيضاً عازفة بيانو موهوبة تزداد شهرة يوماً بعد يوم، وتقيم حفلات «كونسيرت» في قاعة «وِجْموْر» الشهيرة.

ويقول له عبد الرحيم «وايه اللي رمى ست محترمة زي دي على واحد بغل زيك؟».

حكى لنا أنه تعرف بها في اجتماع لنادي «شباب حزب المحافظين» على أثر مناظرة حامية تصدى فيها «منسي» لرئيس وزراء بريطانيا آنذاك سير أنتوني ايدن. وسوف نرى فيما بعد كيف أن منسي قاد مناظرة عن قضية فلسطين، وهو لا يعرف كثيراً عن قضية فلسطين، في مواجهة أحد جهابذة السياسة في بريطانيا، وخرج منتصراً. يقول منسي إنه كان رائعاً في تلك الليلة وهو يوجه الضربات لسير أنتوني ايدن، ذلك الديبلوماسي المحنك والسياسي العتيق. دافع عن تأميم مصر لقناة السويس وهاجم سياسة حكومة سير أنتوني ايدن العدوانية نحو مصر. بعد الاجتماع جاءته تلك الفتاة الطيبة وأعربت

له عن إعجابها بشجاعته وقوة دفاعه عن بلده، ودعته إلى دارها وعرّفته بأهلها. يقول «منسي» إنه قرر في تلك الليلة أن يتزوجها.

وهكذا تحول «منسي» بين عشية وضحاها من حال إلى حال. انتقل من غرفته البسيطة في حي «فولهام» إلى دار من طابقين في شارع «سدني» الشهير، في حي «تشلسي» العريق. كانت «ماري» تعيش هي ووالدتها وحدهما فقد كان أخواها وأختها متزوجين. وسرعان ما أصبح «منسي» سيداً مطلق السلطان في تلك الدار الإنجليزية المحافظة. كانت حماته التي تربت على أيدي مربيات فرنسيات، وتتحدث اللغة الإنجليزية بلكنة فرنسية، تعيش في الطابق الأرضي، فاستولى هو على الطابق العلوي. كنت تراه متى زرته يجري طالعاً نازلاً آمراً ناهياً. قلب تلك الدار رأساً على عقب. وسرعان ما أخذت الدار تمتلئ بأصناف من البشر لم تخطر على بال أجداد «ماري» النبلاء الراقدين في مضاجعهم الدارسة في أطراف إنجلترا.. يفتح «منسي» لك الباب، فتهجم عليك روائح الملوخية والكمونية والكوارع والمسقَّعة، روائح تتلوى منها دون شك، أمعاء أولئك الأسلاف في مراقدهم النائية.

يقول له عبد الحي، وقد كان يحضِّر للدكتوراه في الاقتصاد في جامعة أوكسفورد، بلهجة فلاحي الدلتا التي يعتز بها: ـ
«يا صعيدي يا قبطي يا ابن الـ.. والله عال. بقى أنت تجي بلاد الإنجليز آخر الزمن وتتزوج مين؟ حفيدة سير توماس مور؟».

يترجرج جسم «منسي» الذي بدأت تظهر عليه آثار النعمة، ويتقلص وجهه المستدير، ويشيع في عينيه الوقحتين ضحك طفولي كان من مكونات جاذبيته: ـ

«أنت أصلك فلاح ما تفهمش حاجة، تفتكر دي حكاية كبيرة؟ طظ. وإيه يعني سير توماس مور؟ ثم ما تنساش اني أنا من سلالة ملوك الفراعنة في صعيد مصر».

«أنت من سلالة ملوك الفراعنة؟ أنت من سلالة شحاتين في الصعيد».

«اسكت يا فلاح. قال إيه؟ جايي يعمل دكتوراه في الاقتصاد. جاتك نيلة. إيه اللي عرف الفلاحين في الاقتصاد؟».

٣

كان في «منسي» خصلتان حميدتان، حبه للبسطاء وحفاظه للود. وقد ظل طول حياته يحتفظ بكل الصداقات التي كونها منذ بداية حياته ويضيف صداقات جديدة. كانت قدرته مذهلة على التعرف بالناس واصطناع الأصدقاء والاحتفاظ بهم. وكان أصدقاؤه من مختلف الأجناس، وشتى المذاهب والمشارب والأقدار والمراتب. وكانوا كلهم عنده سواسية، الأمير مثل الفقير، يعاملهم ببساطة ودون تكلف. إلا أنه كان يعنى بالفقراء والأطفال عناية خاصة، ويكون معهم على سجيته تماماً، ومع الأطفال يكون كأنه طفل. لقد زار الدوحة أول عهدي بها، منذ خمسة عشر عاماً وتعرف بطريقته العجيبة إلى عدد كبير من الناس في وقت قصير. كلهم ما زالوا يذكرونه ويسألون عنه، خاصة بين سائقي سيارات الأجرة. كان يترك أثراً عند الناس لا ينسى، أثراً حسناً في الغالب، وفي أحيان

قليلة شيئاً من الضيق والنفور. ولكن مهما كان الأمر فإن كل من يتعرف به لا ينساه أبداً.

لذلك كان يجد أصدقاء حيثما ذهب. حين رافقني في رحلتي إلى الهند وإلى أستراليا، وهي قصة أرويها لكم فيما بعد، زاره شاب في الفندق الذي أقمنا به في سيدني. كان الشاب يخاطبه باحترام بالغ لفت نظري، فسألت «منسي»، فقال:

«هذا ابن فلان الجزار، تذكر الجزار في سلُونْ ستريت؟».

أول مرة رافقت فيها «منسي» إلى محل ذلك الجزار أعطاني كمية عظيمة من اللحم وطلب مني مبلغاً ضئيلاً. قلت للرجل:

«لا بد أنك اخطأت في الحساب. هذا اللحم يستحق أكثر من هذا بكثير». تلفت الرجل حوله، وكان المحل مزدحماً بالزبائن. قال لي: «نعم. أنا آسف».

ثم أعاد اللحم إلى مكانه ووزن لي الكمية التي طلبتها، وتقاضاني ثمناً كبيراً عليها، ولما خرجنا قال لي «منسي» غاضباً:

«انت مش حتبطل التغفيل بتاعك دا؟ الرجل عاملك معاملة خاصة لأني فهّمته انك صاحبي».

«طيب يا أخي مش كنت تفهّمني؟ أنا ظنيت أنه أخطأ فعلاً. ايه عرفني انك بتعمل شغل الأونطة حتى مع الجزارين».

لكن لم يكن «شغل أونطة» فقد كان الرجل صديقه، كما علمت فيما بعد، وقد أقام عنده أول قدومه إلى لندن، وأصبح كأنه فرد من أفراد عائلته. وظل «منسي» وفياً لتلك الصلة طول حياته. ولما فتح الله عليه، كان من بعض هداياه إلى صديقه الجزار، سيارة «روفر».

في سيدني، سألت «منسي» لماذا يعامله الشاب بذلك الاحترام المبالغ فيه، فأجابني:

«لأنني أنقذته من مصير قاتم، وأنا السبب في أنه درس في الجامعة وأصبح مهندساً».

ولما استوضحته أكثر، حكى لي أن صديقه الجزار كان ينتمي إلى جماعة دينية متزمتة تعيش بمعزل عن الناس ولا تتعامل معهم إلا في أضيق الحدود ويرفض أفرادها أن يدخلوا أبناءهم المدارس. وقد ظل «منسي» يحاور الرجل حتى غير فكره وأخرجه من الجماعة كلية، وأقنعه بإدخال ابنه المدرسة وكان ابنه الأكبر.

يقول «منسي»:
«لولاي لكان هذا الشاب الآن جزاراً في سوق «سمثفيلد» أو عتّالاً في ميناء لندن».

قلت له:
«كنت أدخلت الرجل الإسلام بالمرّة وكسبت أجراً».
يقول «منسي» ضاحكاً:
«أيامها كنت كافراً. ولو كنت مسلماً، كنت أدخلته الإسلام. بس ما تنساش اني أنا أدخلت عشرات في الإسلام في أمريكا».

وأقول له:
«سبحان الله. ربنا حكمته بالغة. يتحول واحد كافر زيك إلى داعية للإسلام».

يضحك بمتعة حقيقية فقد كانت تناقضات الحياة تستهويه وتنعش روحه كما ينتعش النبات بالماء. يقول:

«تصور واحد زيي يتجوز واحدة من الأشراف، وانتو المسلمين أولاد المسلمين اللي متجوز إنجليزية واللي متجوز سويسرية واللي متجوز مش عارف إيه».

زارته أيضاً سيدة مصرية مع زوجها الأسترالي. وقد حكى لي «منسي» أنه كان يعرفها ويعرف عائلتها أيام كان طالباً في جامعة الإسكندرية وأنه لم يرها منذ ثلاثين عاماً. تذكرا أيامهما في الإسكندرية، والسيدة تضحك بسعادة، وهو يسألها عن أفراد عائلتها، ماذا حدث لفلان وأين فلانة الآن، والزوج يبتسم، والزوجة تقول لزوجها:

«هذا هو مايكل الذي طالما حدثتك عنه. كان يحبني ويريد أن يتزوجني. أليس كذلك يا مايكل؟».

وأقول له باللغة العربية:

«أنت حترجع مايكل تاني والاّ إيه؟ مش خلاص أسلمت وبقي اسمك أحمد؟»
يظل يضحك، فقد كانت سيدني جميلة في تلك الأيام، وكان هو

في أحسن حالاته، وقد عاد الزمن ثلاثين عاماً إلى الوراء. وماذا يهم إن كان اسمه «مايكل» أو «أحمد».

ذلك لم يمنعه من أن يدعو كل أولئك الأصدقاء القدامى الذين اكتشفهم في سيدني، على حسابي. كان يدعوهم للغداء أو العشاء ويوقع الفاتورة على رقم غرفتي. وقد أسعده ذلك سعادة فائقة، وظل يحكي القصة بعد ذلك مراراً وتكراراً ويضحك كل مرة بالطريقة نفسها. فلم يكن أحب إليه من أن يبرهن على أنه «حدق» وأنني «مغفل».

بتلك الطريقة، أصبح «منسي» شخصية معروفة في كل منطقة جنوب غربي لندن بل وأبعد من ذلك. كان معروفاً في «وست كنزجتن» و«ايرلز كورت» و«ساوث كنزنجتن» و«تشلسي» و«سلون» و«بلجرافيا» و«ماي فير». يعرف بائعي الخضار والجزارين وأصحاب المطاعم والحانات والمقاهي، والأطباء والممرضات في المستشفيات، ورجال الشرطة والعمال والعاملات في المحلات التجارية وأصحاب محلات البقالة والممثلين والممثلات وأعضاء في البرلمان وأساتذة في الجامعة ورجال دين وأصنافاً لا تحصى من البشر. ولم تكن معرفة سطحية. كانوا جميعاً أصدقاءه يزورونه في داره ويزورهم في دورهم، طاقة هائلة نادرة المثال، طاقة «نابوليونية» كما كان يقول، وسيارة مثل فقاعة الصابون وتسمى «الفقاعة» (Bubble Car) ظهرت لفترة قصيرة تلك الأيام ثم اختفت. كانت له «عجلة» أول مجيئه إلى لندن، وبعد أن تزوج وانتقل إلى «سيدني ستريت» وتحسنت أحواله نسبياً، اشترى تلك السيارة العجيبة. كنت أكون معه أحياناً فننحشر في عز الزحام في بيكاديللي بين حافلتين من باصات لندن الحمر الضخمة ذوات الطابقين. يثير منظر تلك السيارة

القميئة المكورة بسقفها الزجاجي ونحن قابعان في جوفها، سخرية الركاب من وراء ومن أمام، ويتحول ميدان «بيكاديللي» إلى سيرك، الناس يهتفون والسيارات تزمر، ونحن حبيسان في تلك الفقاعة، و«منسي» يضحك ويضحك ويضحك.

٤

كان باب شقتنا في «ثيرلوبليس» قبالة متحف فكتوريا والبرت، يفتح على الممر الذي يؤدي إلى الدار الفاخرة التي تسكنها «مارقو فونتين» فنانة الباليه الشهيرة مع زوجها سفير بنما. كانت شقة واسعة تحت الأرض Basement تقاسمتها مع صلاح أحمد محمد صالح، ولما عاد إلى السودان تركها لي، فسكن معي محمد إبراهيم الشوش. كان صاحب الدار، مستر «بومبيرج» وهو أخو الرسام المعروف «ديفد بومبيرج» يزورنا أحياناً أواخر المساء مع زوجته، ونتحدث في الفن والشعر والأدب والمسرح والسياسة، وما شئت من أحاديث يسوقها شرخ الشباب وهدوء البال وانفتاح الشهية للحياة. لم أشتر الشقة لسوء الحظ كما نصحني مستر بومبيرج بذلك الثمن القليل الذي عرضه إكراماً لتلك الأمسيات، وكان ذلك واحداً من القرارات الكثيرة الخاطئة والفرص الضائعة. والآن وقد أخذ العمر

يتقاصر ويستطيل ظل الماضي، أنظر إلى الوراء فأرى تلك الأخطاء تشرئب بأعناقها كالجبال عند خط الأفق. يضحك «منسي» ويقول لي «أنت حتفضل مغفل. إزاي تضيع فرصة زي دي؟» ولعله كان على حق، فمَن غير «مغفل» مثلي يدفع فواتير الحساب لرجل مليونير مثل «منسي»، كما فعلت في «سيدني»؟

كنت أرى «مارقو فونتين» رائحة أو غادية في سيارتها الـ «رولز رويس» فتحييني وأحييها على البعد، ولم يخطر على بالي أن أذهب أكثر ولم أقابلها وجهاً لوجه وأتحدث إليها، إلا بعد عامين من سكني جوارها. وكان ذلك في دمشق. أما «منسي» فما إن أدرك أنها جارتي حتى سارع بالتعرف إليها وإلى زوجها وصار يزورهما ويزورانه. كذلك تعرف إلى الممثل الأسترالي المعروف «بيتر فنش» والممثل الإيرلندي الشهير «بيتر أوتول» وكانا يسكنان قريباً منه في «تشلسي». كان حي «تشلسي» تلك الأيام محط الرسامين والشعراء والكتّاب والممثلين، ثم ارتفعت أسعار السكن في السبعينيات فهاجروا بعيداً إلى شرق وشمال لندن، وبعضهم ذهب إلى الريف. لم يكن عسيراً على «منسي» أن يتوغل في ذلك المجتمع الجذاب، وهو مجتمع منفتح بطبيعته، أقل نفوراً من الإنسان الأجنبي، من المجتمعات الإنجليزية الأخرى. وهب أنه لم يكن كذلك، فهل كان الأمر يستعصي على «منسي»؟ أبداً. إنه الآن على أي حال مسلح تسليحاً غير عادي. فهو، بالإضافة إلى جرأته ولغته الإنجليزية المطواعة، يسكن في شارع معروف في حي عريق، ووراءه أصهاره الأماجد، ثم زوجته عازفة البيانو المعروفة في الأوساط الموسيقية. العجيب أن «ماري» زوجة «منسي» لم تكن تكترث بالوسط الفني ولم يكن يبدو على سمتها أنها «فنانة». كانت سيدة بيت عادية، تجدها دائماً تكنس أو تغسل أو تطبخ، بينما هو يتصدر المجلس

يتدفق في الحديث عن الرسم والشعر والمسرح والموسيقى وما شابه.

عن طريق هذه الصلات الواسعة، حصل على أدوار صغيرة في السينما. كان يهول لنا الأمر، كأنه هو البطل، ثم نذهب ونشاهد الفيلم فإذا «منسي» سائق تاكسي في القاهرة أو «جرسون» في مقهى في بيروت، وإذا دوره لا يتجاوز دقيقة أو دقيقتين. ولو كانت عنده أدنى موهبة في التمثيل لحملته تلك الصلات بعيداً، ولكنه كان ممثلاً موهوباً في الحياة فقط، أما في «الفن» فكان شيئاً آخر. ما إن يقف أمام الميكرفون أو الكاميرا، حتى يصبح فاتراً أو يبالغ في الآداء فيبدو سخيفاً. كان جمال الكناني رحمه الله، وقد كان رئيساً لقسم الدراما في الإذاعة تلك الأيام، يحبه ويعطيه دوراً في أي تمثيلية يخرجها، ليستمتع بمعابثته وشتمه. كانوا كلهم يشتمونه يبدأون حديثهم معه بيا كذا، ويا ابن كذا. يصرخ جمال كناني «يا واد يا ابن.. أنت طوال الوقت عمال تتنطط وتترقص وأول ما يولع النور الأحمر ويبدأ التسجيل تتهمد. الله يخرب بيتك. ما تحط شوية من الأونطة دي في الشغل».

لكن «منسي» لم يكن يستطيع، فالحياة شيء والفن شيء، والأونطة قد تصلح في الحياة، ولكنها لا تصلح في الفن أبداً. في الحياة، يمثل بالسليقة، وكأن قوى غير مرئية تسنده. يجازف. ويتخطى الحواجز، ويذهب أبعد مما يجب، تماماً كما يفعل الشعراء الموهوبون. ولو أنه رضي بذلك الدور الذي هيأته الحياة له، لعله كان ينجز أكثر مما أنجز بكثير. وأنا لا أشك، أنه كان في متناول يديه لو أراد، أن يصبح من أساطين التجارة والمال. لكن «منسي» كان يريد أن يحيا وأن يكتب وأن يمثل، وفوق كل شيء، أن يضحك. كانت تلك متعته الحقيقية، أن يحول أحداث حياته إلى مادة للضحك. ولم

تكن تراه أسعد حالاً منه وهو يتصدر مجلساً والناس منجذبون إليه وهو يحكي لهم بعض ما حدث له. ذلك كان مسرحه الحقيقي. ويستحسن أن يوجد شخص، مثلي، يكون شارك في تلك الأحداث، لكي يذكره ويذكي جذوة حماسه:

«احك لهم يا طيب لما سافرنا لبيروت، حصل إيه في المطار».

هذا معناه أنه يريد أن يحكي هو القصة، فأعطيه طرف الخيط، وأضيف شيئاً من حين لآخر، وأوجهه الوجهة التي يريدها بالفعل. لذلك فبالإضافة إلى أنني كنت «أباً روحياً» له، فقد كنت أقوم بدور الممثل المساند في العروض الكوميدية، كما عند «لوريل وهاردي» و«موركم ووايز». تجد شخصين في هذا النوع من الكوميديا، بينهما تباين واضح جسمياً وعقلياً، فالنحيل إزاء السمين والطويل إزاء القصير. واحد ذكي واسع الحيلة يخرج من المشاكل مثل الشعرة من العجين، الثاني «أهبل» يتعثر فيقع ولا يدري أين الباب فيخبط رأسه في الحائط، وهو الذي تقع على رأسه المشاكل، عموماً. هذا كان دوري، وأعترف أنه دور قمت به طائعاً مختاراً وعن إدراك تام، فإلى جانب مودتي العميقة له، فقد كان «منسي» ظاهرة فريدة، ظللت أسايره وأراقبه بحيرة ودهشة وضيق في بعض الأحيان ومتعة بصحبته في أحيان كثيرة. لقد كان مثلي في هذا كل أصدقائه الحميمين، ولكن لعلني كنت الوحيد بينهم الذي قبله على علاته وأخذه مأخذ الجد.

إنما «منسي» نفسه لم يأخذ الدور الذي هيأته الحياة له مأخذ الجد، وأراد أن يلعب أدواراً لم يكن مهيأً لها. وكان حين يخطئ في الحياة يخطئ لأنه يتصرف كـ «فنان» في ذلك الفن الحقيقي الموهوم،

فيصبح مثل ممثل على المسرح ينسى دوره ويتلعثم ويفقد حاسة التوقيت والقدرة على الاستجابة. لذلك اكتفى ببضعة ملايين بدلاً من مليارات، وبقصر واحد بدلاً من قصور ويخوت وطائرات خاصة وبنوك وشركات. والآن، وقد مات فجأة مثل حصان سباق كبا ولما يبلغ نهاية الشوط، أعود فأقول، إنه كان حكيماً بل زاهداً بدرجة ما، فماذا يضير الإنسان بعد الموت أنه لم يترك وراءه شيئاً؟ وماذا يجديه أنه ترك مليوناً أو ملياراً؟

كان يكتب تمثيليات لا قيمة لها نقبل بعضها ونرفض أغلبها. وأذكر أنه كتب مرة تمثيلية عن رجل صادف رجلاً يهمّ ان ينتحر بإلقاء نفسه في النهر من الجسر، فأخذ يحاوره إلى أن أقنعه بعدم الانتحار. ذهب الثاني إلى حال سبيله، وانتحر الأول بأن ألقى بنفسه في النهر. كان «منسي» سعيداً بها، ولكنني حين قرأتها وجدتها ميتة ليس فيها حياة، وكان متأثراً تأثراً واضحاً بالكاتب المسرحي الكبير «ساميول بكت» دون أي شيء قريب من فكر «بكت» وأعماقه الفلسفية. لذلك رفضتها. وعجبت حين علمت فيما بعد، أن منسي عرضها مترجمة إلى اللغة الإنجليزية، على «ساميول بكت» شخصياً، وأن ذلك الكاتب العملاق الذي أحدث فتحاً حقيقياً في المسرح العالمي بمسرحيته «في انتظار غودو» قد قرأها بإمعان وناقش «منسي» عنها باهتمام، وأنه أثنى عليها وقال له:

«هذا عمل جميل لافت للنظر».

٥

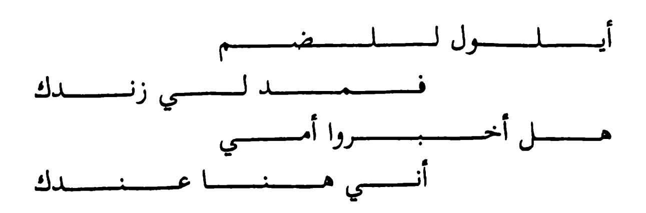
لولا «منسي» رحمه الله وغفر له، لعل الرياح كانت تمضي بي رخاء في عملي في هيئة الاذاعة البريطانية. كنت سعيداً، مرضياً عني، يضرب بي المثل. وقد رفعوني إلى رتبة مساعد رئيس قسم ولما أبلغ الثلاثين، وكان ذلك أمراً عزيزاً تلك الأيام. أصبحت أحضر اجتماعات رؤساء الأقسام، ولي مكتب مستقل وسكرتيرة. شاهدت حفل تتويج الملكة من داخل بيعة «وستمنستر آبي» مع علية القوم الذين دعوا لتلك المناسبة من الشرق والغرب، وبعدها جالست رؤساء ووزراء في الحفل الذي أقيم في «وستمنستر هول». صحيح ان الزي الذي ارتديته لتلك المناسبة، كان «عاريّة» مستأجراً من محلات «موس برذرز» في «كوفنت غاردن». سترة سوداء ذات ذيل تجعلك تبدو مثل طائر البطريق، وقبعة طويلة وياقة منشاة. وصحيح أنني بعد أن انتهى الحفل وانفض السامر، جاءت السيارات الفاخرة

تحمل أولئك الرؤساء والوزراء. أما أنا فقد سرت على قدمي إلى محطة القطار الذي يسير تحت الأرض، وكان القطار مزدحماً، فظللت واقفاً والناس يعجبون مني وأنا في زي الوجهاء ووضع الدهماء. ذلك وضع كان أليق بمنسى. إذن لاستغله أحسن استغلال وحوله إلى قصة أخرى تروى. لكنني على أي حال تمتعت بذلك العالم السحري في ذلك اليوم القصير، وما كنت أعلم أن الحياة كانت تعابثني مثل امرأة لعوب، كما ظلت تفعل، لأنها كانت تراودني لأمر لم يكن يخطر لي على البال.

كذلك كنت أول عربي يرسلونه إلى نيويورك لـ«تغطية» اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، ذلك الحدث المشهود الذي أمه معظم زعماء العالم، وكنت شاهداً حين خلع نيكيتا خروشوف حذاءه، وضرب به المائدة احتقاراً، ورئيس وزراء بريطانيا واقفاً يخطب. رأيت أعضاء نيجيريا يدخلون القاعة في ثيابهم الفضفاضة، والدنيا لا تسعهم من الفرح، يتقدمهم ذلك الرجل الوقور سير أبو بكر تفاوا بليوه. كانت نيجيريا قد استقلت توها وقبلوها عضواً في منظمة الأمم المتحدة. ذبحوه ذبحاً بعد ذلك، كما ذبحوا أحمدوا بللو السردوانا الجليل في هوجة من هوجات الجند التي يسمونها ثورات. وكنت شاهداً حين أعلن داج همرشولد الأمين العام للأمم المتحدة أنه لن يستقيل كما طالب الاتحاد السوفياتي. مرت الأعوام ولعبت الولايات المتحدة الدور نفسه إزاء صاحبنا أحمد مختار أمبو مدير عام منظمة اليونسكو. يومذاك في نيويورك شن خروشوف حرباً شرسة ضد همرشولد واتهمه بأنه ذيل الغرب وأنه مسؤول عن مقتل باتريس لومومبا وكل المآسي التي حدثت في الكونغو. وأذكر جملة قالها همرشولد في خطابه القصير الذي أعلن فيه أنه باق في منصبه. قال موجهاً حديثه لزعماء دول العالم الثالث «هذه المنظمة

لم تقم لخدمة الدول الكبرى. إنها أنشئت لخدمتكم أنتم، فأنتم الذين تحتاجون لها لا الدول الكبرى».

كان العرب في ذلك الاجتماع مجمعين على نصرة القضية الفلسطينية وتأييد كفاح الجزائر الذي كان قد أينع وحان قطافه، ومختلفين على كل ما عداهما. لكنني كنت غض الإهاب جداً، وكذلك العالم العربي، ومصر وسورية متحدتين، ودمشق «الفيحاء» فيحاء بحق وحقيق، والقاهرة الظافرة تصنع أحلاماً تبدو كلها قريبة المنال. صلاح جاهين يكتب وأم كلثوم تغني، وعبد الوهاب. وصباح تهتف، كأنها تصدق ما تقول «أنا عارفة السكة لوحدية، من الموسكي لسوق الحميدية». مسكين سوق الحميدية. كان تلك الأيام حول الجامع الأموي العتيد، كما كان على أيام هشام بن عبد الملك. لم يكونوا قد أزالوا بعد، ذلك الماضي السحيق العريق ولم يشقوا طرق الإسفلت. ولبنان كأنه في حلم جميل لن ينتهي. المال يتدفق من كل الجهات، كما قال الشاعر القطري «البيت فاض ومصب السيل لبنان»، والمصارف لا تدري أين تضع «البيزات»، والليرة مثل الذهب، والمطاعم والمراقص والملاهي غاصة بالخلق من مغيب الشمس حتى مطلع الفجر، ونساء بيروت على طول الساحل يستقبلن شمس البحر المتوسط وكأن ذلك الزمان الرغد سوف يدوم إلى الأبد، كان أخونا نزار قباني يكتب شعراً يبكي العذارى في خدورهن ويجعل العجائز يتحسرن على شبابهن، وقال بيتين سار بهما الركبان:


أيلول للضم
فمد لي زندك
هل أخبروا أمي
أني هنا عندك

آه يا صفاء. ما أقسى ما عبثت بي وبكم الحياة منذ ذلك العهد!

أجل كانوا أحفياء بي حقاً. أرسلوني لفترات طويلة إلى مكتبهم في بيروت، وكانت تلك ميزة لا ينالها إلا أصحاب الحظوة، وحاضرت في معهد التدريب عدة مرات، وكان مستر ووترفيلد رئيسنا الأعلى يقول لي ضاحكاً:

«إنهم دعوني مرة واحدة ثم لم يدعوني بعدها. لماذا أنت دعوك مرة وثانية وثالثة؟».

كان نصيبي من السفر في مهمات رسمية أكثر من غيري، وكان كلما يجدّ أمر يضفي بريقاً ويزيد من الحسنات التي تسجل في التقارير السنوية، يقولون «فلان» في أغلب الأحيان.

لا عجب إذاً إنني كنت مغتبطاً بوضعي، راضياً عن نفسي، أرى الدنيا مثل حسناء مرغوبة تدعوها فتستجيب.

وبينا أنا كذلك، إذا بمنسي، رحمه الله وغفر له، يعرض لي كما عرض إبليس لآدم عليه السلام في الفردوس.

٦

دخلت مكتب مستر ووترْفيلْد فإذا هو ومساعده ومعهما مراقب الإدارة للإذاعات الخارجية. كان رجلاً مرهوب الجانب، لا يظهر عندنا إلا إذا طرأ أمر جلَلْ، ولم يكن بيني وبينه ود، فقد كان يعتقد أنني مدلّل أكثر مما يجب وأنني لا أعبأ كثيراً بالنظم الإدارية. لم يهشّ مستر ووترفيلد في وجهي كعادته، وأشار إليّ بالجلوس. نظر إليّ مراقب الإدارة نظرة صارمة من وراء نظارته السميكة، ولم يمهلني طويلاً، ولكنه ناولني في صمت رزمة من الأوراق. قلبتها وأنا لا أعلم حقيقة الأمر، فإذا هي جميعاً أوامر دفع باسم مستر «بسطاوروس» نظير اشتراكه في عدد من البرامج، وكلها ممهورة بتوقيعي. لم يلفت انتباهي فيها شيء فأعدتها إليه، أعطاني إيّاها مرة أخرى وقال لي:

«تفحص الأوراق جيداً».

درستها على مهل، وأنا أُعمل فكري محاولاً أن أجد تفسيراً لهذه المحاكمة. كان من الواضح أنها محكمة إدارية وأن أمراً خطيراً قد حدث، فإلى جانب وجود ذلك الموظف الكبير، كانت في ركن المكتب سكرتيرة تسجل ما يدور. أيضاً لم ألاحظ أي شيء غير عادي، ولما فرغت رفعت رأسي ونظرت إليه نظرة لا بد أنها نمّت عن إحساس تجاهه، فقد سارع مستر ووترفيلد، وقد كان كريماً معي دائماً، وابتسم لي ابتسامة خفيفة جداً كأنه يقول لي «طوّل بالك». كان مستر ووترفيلد كما حدثتكم في مكان آخر، كاتباً، وكان منصب رئيس الإذاعة العربية أقل منه بكثير، وكان في قرارة نفسه يحتقر البيروقراطيين ويضيق بالتزمت الإداري، وقد خاض معارك عدة ضد هذا الرجل بالذات.

قال لي مراقب الإدارة بصوت بارد، كما يكون صوت الإنجليزي بارداً حين يخلو من الود:

«هذه التوقيعات هي توقيعاتك، أليس كذلك؟».
«نعم».
«هل درست الأوراق جيداً».
«نعم».
«ألم تلاحظ أي شيء غير عادي؟».
«ماذا تقصد أي شيء غير عادي؟».
«الأجور المطلوب دفعها مثلاً».
«ما لها الأجور المطلوب دفعها؟».
«كم تدفعون لممثل من الدرجة (ألف) على تمثيلية طولها نصف ساعة؟».
«ندفع كذا».

«وإذا كان موظفاً في هيئة الإذاعة البريطانية؟».
«ندفع له ثلث الأجر».
«انظر إلى الأجور التي دفعت لمستر بسطاوروس على مدى...».
قال هذا، وناولني الأوراق. نظرت فيها فإذا هي أجور كاملة.

«هل كنت تعلم أن مستر بسطاوروس أو مستر مايكل أو مهما كان اسمه موظف في هيئة الإذاعة البريطانية ويعمل محرراً في قسم الاستماع للإذاعات الأجنبية في كافرشام؟».

صمتّ وقد بدأت أفهم جسامة الخطأ الذي وقعت فيه. ومع أنني لعنت «منسي» في سري، فإنني لم أفكر طويلاً، فقد كنت غِرّاً، وقد أخذتني العزَّة بالإثم، ولعلني قلت لنفسي «إن كان هذا (الخواجا) متعجرفاً فبوسعي أن أجهل فوق جهل الجاهلينا، وأسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن أستقيل وأعود أدراجي من حيث أتيت وأرتاح من التناقضات ووجع القلب». قلت له، وقد استقر عزمي على الاستبسال، كما يفعل «أولاد العرب» عندنا حين يخرب الأمر: «نعم».

التفت إليّ مستر.. مساعد رئيس القسم فجأة، وأعاد عليّ السؤال بلؤم وبطء:

«هل كنت تعلم أن مستر بسطاوروس موظف في هيئة الإذاعة البريطانية ويعمل محرّراً في قسم الاستماع في كفرشام؟».

هذا «الخواجا» أيضاً لم يكن بيني وبينه ود، أو على أحسن الفروض كانت علاقة متأرجحة تحسُن أحياناً وتسوء في أغلب الأحيان. لم

يكن من «العروبيين» كما كانوا يسمّون، أمثال مستر ووترفيلد ومستر هوايتهد، أولئك الرجال والنساء الذين عاشوا سنوات شبابهم في العالم العربي، وتعرّفوا على العرب عن قرب وأحبوهم. كان هذا متخصصاً في الشؤون الألمانية، رجلاً متوقد الذهن وراءه تاريخ أكاديمي مشرق. ولكن يبدو أن أشياء قد حدثت له عكّرت عليه صفو حياته. وقد عمل معظم وقته في أقسام الإذاعات الموجّهة إلى شرق أوروبا، وهي إذاعات كنا نعدها أقرب إلى وزارة الخارجية منها إلى هيئة الإذاعة البريطانية. وقد كان كفاحنا نحن العرب تلك الأيام، يؤيدنا في ذلك مستر ووترفيلد ومستر هوايتهد، منصبّاً على إبعاد القسم العربي من نفوذ وزارة الخارجية، وجعله خدمة إذاعية حقيقية. كان إنساناً متناقضاً مستفزاً يستدرجك إلى النقاش، فإذا انسقت له وعبّرت عن رأيك بصراحة، فجأة يقلب لك ظهر المجَنّ. وكان يزعم أنه مفكر متحرر، ويقول لكل من يقابله من الزوار العرب:

«أنا رجل راديكالي الفكر، أنتمي إلى اليسار المتطرف من حزب العمال».
وكنت أعقّب على قوله:

«مستر.. هذا يدّعي أنه متحرر ولكنه في الواقع استعماري إمبريالي».

هذا كان يغيظه، كما قدَّرت، وقد ناداني مرة إلى مكتبه وقال لي:
«أنت تحرجني بهذا الكلام».
وأقول له، مستنداً إلى «أصول اللّعب» الإنجليزي:
«ولكن يا مستر.. هذه دُعابة. ألا تقبل المزاح؟ ألستم تقولون إنكم تمتازون على سائر الأمم بروح الدعابة؟».

إنني أدرك الآن أنني كنت «لا مبالياً» أكثر مما يجب، ربما لأنني كنت أعي تناقض وضعي، خاصة في سنوات الغليان القومي تلك في العالم العربي، وكأنما كل نجاح أحرزه في عملي مع الإنجليز، يزيد وضعي تعقيداً، وكأنني كمن يهدم اليوم بيديه ما بناه بالأمس. وذلك سلوك لم يكن يقدره أو يحتمله إلاّ رجال «كبار» حقيقة، أمثال مستر ووترفيلد ومستر هوايتهد.

قلت له:

«نعم».

نظر بعضهم إلى بعض بطريقة لم أفهم مغزاها إلا فيما بعد.

سألني مراقب الإدارة وهو يتصنع الرفق، وقد حق له أن يتصنع الرفق، فقد وضعني، كما خُيِّل له، في مأزق لا مخرج منه:

«هل كان مستر كناني يعلم؟».

كان جمال الكناني، رحمه الله، العربي الأول في القسم تلك الأيام، مسنوداً سنداً كاملاً من مستر هوايتهد ومستر ووترفيلد، يفعل ما يشاء ولا يبالي، وكانت كراهية مراقب الإدارة هذا له ربما تفوق كراهيته لي، لذلك، من الواضح أنه يريد أن يقتل عصفورين بحجر واحد. قلت له:

«لا أعلم».

«كيف لا تعلم؟ ألست مساعده وتقوم مقامه في غيابه؟ ألم تتحدثا أبداً في هذا الموضوع؟».

«لا».

نظر بعضهم إلى بعض كرّة أخرى، وقال لي مساعد رئيس القسم

بسماحته المعهودة:

«مستر بسطاوروس صديقك، أليس كذلك؟».

هنا سارع مستر ووترلفيلد إلى نجدتي. نظر إلى مساعده نظرة صارمة، وقال له:

«على رِسْلك يا فلان».

٧

ليتني، غفر الله لي، أكون ولو ممسكاً بخطام بعير سيدنا عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما. ذكروا أن رجلاً سبه في الطريق، فلم يرد عليه وظل سائراً والرجل يتبعه ويسبه. فلما وصل سيدنا عبد الله بن عمر إلى داره التفت إلى الرجل وقال له: «يا هذا. أنا وعاصم أخي لا نسبّ الناس». وأكثر ما يهزني في هذه القصة أنه قال «أنا وعاصم أخي». ولك أن تتخيّل أنه لم يرد أن ينفرد بالفضل، أو أنه ذكر أخاه في ذلك السياق لفرط محبته له، وكأنه معه، يستحضره في جميع أحواله. وعاصم هذا كما نعلم هو جد عمر بن عبد العزيز لأمه، من تلك الأعرابية التي أبت أن تغش اللبن وقالت لأمها «إن كان عمر لا يرانا فإن الله يرانا». فرأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفراسته ما رأى، فزوجها من ابنه وجاء من ذريتهما أشج بني مروان، الذي أوسق الدنيا عدلاً زمناً قصيراً ليته

طال، إلى أن مات أو قتل. تلك ذرية بعضها من بعض.

ذلك لأن من حسناتي القليلة، عفا الله عني، أنني لست شتاماً ولا صخاباً في الأسواق. بيد أن منسي يومئذٍ، أخرجني عن طوري. لقد قطع عليّ طريقي، وظهر فجأة مثل الشيطان ليفسد عليّ ذلك الحلم الجميل. هاأنذا الآن متهم بالتقصير الإداري وهو تقصير واضح لا مراء فيه. لكنه محتمل، الذي لا يحتمل هو أنني متهم في أمانتي وقد كنت أظنها فوق الشبهات.

«مستر بسطاوروس صديقك، أليس كذلك؟».

هكذا قال مساعد المدير. ومع أن مستر ووترفيلد الكريم هب لنجدتي، فإن الضرر قد وقع والكلام قد قيل إن حقاً وإن كذباً.

بل إن الأمر كان أكثر فداحة، فقد علمت فيما بعد أنهم استجوبوا قبلي، جمال الكناني رئيس القسم، وكان رغم نضجه وتجربته الطويلة قد وقع في الخطأ نفسه. قال إنه لم يكن يعلم أن «منسي» موظف في قسم آخر في هيئة الإذاعة البريطانية. كل المسؤولين في القسم انكروا أنهم يعلمون، وهذا يعني أنني خرجت على إجماع المسؤولين في القسم فأغضبهم ذلك، وقبلت تهمة التقصير، ووضعت نفسي في وضع مريب.

لذلك خرجت عن طوري، وشتمت «منسي» أقصى ما أعانني عليه طبعي. لكنه لم يأخذ الأمر مأخذ الجد، واعتبره نكتة وشطارة و«شغل حَلَبسة». لقد أربك كعادته، جهازاً إدارياً ضخماً منظماً تنظيماً دقيقاً. كانت أوامر الدفع تذهب من عندنا إلى الوحدة

الإدارية في القسم للتدقيق والمراجعة. وهي بدورها ترسلها إلى القسم الإداري للإذاعات الخارجية ومن ثم تذهب إلى الجهاز الإداري المركزي. كان «منسي» رحمه الله، يعمل في قسم الاستماع باسم «مايكل» ويعمل معنا باسم «بسطاوروس» وفي الوقت نفسه يعمل مدرّساً للغة الإنجليزية في مدرسة ثانوية باسم «جوزف». وظل هكذا قرابة ثلاث سنوات، وكل أولئك الإداريين يدققون ويحسبون ويراجعون، ولا أحد يدري، إلى أن اكتشف بالصدفة المحضة بعد ذلك. حين كان يسترجع هذه القصة كان أكثر ما يطربه فيها أنه كان يعلّم الإنجليز لغتهم.

كيف كان ينجز كل هذه الأعمال في وقت واحد؟ يتحرك بين أماكن متباعدة مستعملاً سيارته الـ «فقاعة» تلك، فبينما تراه في «كفرشام» على بعد ساعة من لندن، إذا هو في أقصى شمال المدينة، ثم إذا هو عندنا في «بُش هاوس» فكأنك تراه ولا تراه، وكأنك تدري أين هو وكأنك لا تدري. لا عجب أن كل المسؤولين في القسم أنكروا أنهم يعلمون. لقد كانوا فعلاً لا يعلمون، وكانوا يعلمون في الوقت نفسه. وأنا لا أستطيع أن أوقن هل خالفتهم حمايةً لمنسي، أم خيّل لي أنني أعلم بالفعل.

أمضيت وقتاً وبذلت جهداً بعد ذلك في إصلاح خطئي، ولكن تلك البحبوحة التي غمرتني لم تعد إلى سابق عهدها أبداً، فقد ظلت تلك الحادثة تلاحقني في التقارير السنوية زمناً ليس بالقصير. أما «منسي» فقد خرج كعادته من القضية كلها كما تخرج الشعرة من العجين. وصل بطريقته إلى مدير الإذاعات الخارجية، وكان يعتبر الرجل الثاني في إدارة الـ.B. B. C بأسرها، يأتي بعد المدير العام مباشرة. اقتحم على مستر «تانجي لين» مكتبه دون موعد، ولما عرفه

بنفسه، قهقه الرجل بالضحك. قال له، كما روى لنا منسي، وهو يغرق في الضحك «أنت الرجل الذي أدخل القسم العربي في ورطة كبيرة».

كان «تانجي لين» هذا من الرجال «الكبار» من فصيلة مستر ووترفيلد، ولم يكن إدارياً بالمعنى الضيق، ولكنه كان متسامحاً حليماً واسع الأفق. كان رجلاً مستنيراً قضى فترة من حياته في مصر. وكان كاتباً مرموقاً له كتاب مهم اسمه «النابوليونيون» عن الإنجليز الذين سبحوا عكس التيار القومي في بريطانيا وأيدوا «نابليون بونابرت» في صراعه ضد الإنجليز. وقد كان على صلة وثيقة بأوساط الكتّاب والفنانين، فأخوه «ديفد لين» المخرج السينمائي المعروف الذي أخرج فيلم «لورانس العرب» ولا بد أن شخصية «منسي» قد استهوته، فقد استماله تماماً إلى جانبه ودعاه إلى داره وعرفه بزوجته وعياله. وسرعان ما أعيد «منسي» إلى عمله في «كفرشام» وصدر أمر للقسم العربي بأن يرفعوا الحظر الذي كانوا فرضوه عليه.

ظل «منسي» على صلة وثيقة به حتى مات. وقد رد له الجميل حين زار مستر «تانجي لين» مصر، وكان «منسي» يعمل وقتها أستاذاً في الجامعة الأمريكية في القاهرة. سخر كل نفوذه وصلاته الواسعة لخدمته، فاستقبل كأنه رئيس وزراء، ورتب له طائرة خاصة حملته وزوجته إلى الأقصر وأسوان، ورافقه في كل تحركاته في مصر.

إنني لم أكن أقابل مستر «تانجي لين» إلا مرة واحدة في العام، حين كان يقرأ علي التقرير السنوي وكان حين يصل إلى الجملة التي ظلت تتردد في التقارير على مدى سنوات: «ولكن عليه أن يعتني

أكثر بالمسائل الإدارية» يبتسم بلطف كأنه يقول لي:
«لا عليك فأنا أعلم مصدر هذه التهمة».

٨

اقتحم «منسي» بصخبه وضوضائه عالم «ساميول بكت» الهادئ المنعزل وكانت وسيلته إلى ذلك «مسز باربرا براي». هذا الكاتب صاحب المسرحيات والروايات التي أصبحت معالم في مسيرة الأدب العالمي، يعيش في فرنسا منذ سنوات، لا يقابل إلا نفراً قليلاً من الحواريين والأصدقاء، ولا يتحدث للصحف ولا يظهر على شاشات التلفزيون، وحين فاز بجائزة نوبل قال مذعوراً «الآن حلّت اللعنة» واختفى زمناً إلى أن هدأت الضجة. وقد خطر لي منذ أعوام أن أعمل معه مقابلة لمجلة «حوار» التي كان يحررها المرحوم توفيق صايغ وطلبت من مسز باربرا براي أن ترتِّب لي لقاء معه. قالت لي:

«سوف أرتب لك اللقاء. ولكن حين تقابل «سام» سوف تدرك أنه

عليك ألا تصر على إجراء حديث صحفي معه».

سألتها عن السبب فقالت:
«سام رجل قدِّيس، منطوٍ على نفسه وأفكاره، لا يفهم أمور الدنيا ولا يحفل بها، ويريد أن يترك وشأنه».

قدرت رغبته ولم أحاول بعد ذلك مقابلة «ساميول بكت».

قد يبدو هذا العزوف عن الناس غريباً من كاتب تقوم أعماله على صعوبة التواصل بين البشر والعزلة الحتمية التي تلازم الكائن البشري مثل اللعنة في رحلته القصيرة في الحياة. هل لأنه نشأ كاثوليكياً في إيرلندة ثم ابتعد عن الحظيرة؟ أم لأنه صاحب عن قرب الكاتب الإيرلندي العملاق «جيمس جويس» مؤلف «يوليسيس»، الكاتب الذي ربما أحدث الثورة الوحيدة في دنيا الأدب في القرن العشرين؟ لقد أخذ «ساميول بكت» عن «جويس» عنايته باللغة والذهاب بها كل مذهب، وكذلك نظرته العبثية للحياة. لكنه خرج عن طوق أستاذه وشق لنفسه طريقاً طريفاً نسيج وحده، وقدَّم رؤيا أدبية مريعة يبدو فيها الإنسان كأنه في صحراء يباب في ليل كوني حالك السواد، بلا نصير ولا معين. هذا كاتب عنده فترات الصمت بين الجمل أهم من الجمل نفسها، لذلك فهو لا يعطي مسرحياته إلا لمخرجين يثق بهم، وكثيراً ما يصر على إخراجها بنفسه. وقد ظل في كتاباته يكثف ويحذف ويقلل من الكلمات ويزيد من الصمت حتى نشر مؤخراً عملاً أسماه «رواية» من صفحة واحدة فقط.

هذا هو العالم الذي اقتحمه «منسي» بلغطه وجلبته ومرحه، عالم على النقيض تماماً من عالمه. أم تراه كان كذلك حقاً؟ وكانت

وسيلته «مسز باربرا براي».

هذه السيدة من الناس الأخيار الذين صادفتهم في رحلة الحياة، تعرَّفت بها عام ١٩٥٤ أو نحوه بواسطة «منسي». كانت تعمل رئيسة لقسم النصوص في الإذاعات الداخلية في هيئة الإذاعة البريطانية، فاكتشف «منسي» وجودها فوراً، وكانت قد درَّسته اللغة الإنجليزية في جامعة الإسكندرية. وإذا كنت أنا قد قمت بدور «الأب الروحي» له فإن هذه السيدة كانت له بمثابة الأم. كانت علاقة مؤثرة حقاً. يكون «منسي» على سجيته تماماً معها، يضحك كالطفل، ويقص عليها كل ترّهات حياته، وهي تضحك، ولا تجد غرابة في كل ما يقوله أو يفعله. وكان «منسي» على صلة دائمة بها، يكلمها بالتلفون حيثما كان، ويمر عليها في باريس في كل سفراته ليقضي اليوم واليومين.

تخرَّجت باربرا من جامعة كامبردج أواخر الأربعينيات حيث درست الأدب الإنجليزي، وعملت فترة هي وزوجها، محاضرين في جامعة الإسكندرية. وقد مات زوجها، وكان شاعراً موهوباً، في حادث سيارة في اليونان، وترك لها طفلتين عكفت على تربيتهما، فنشأتا نابغتين، فدرست الكبرى اللغة الصينية وهي الآن من العلماء المعدودين في ميدان الدراسات الصينية، وتخصصت الصغرى في اللغة العربية ونبغت فيها. وربما يعود أغلب الفضل إلى «باربرا براي» في اكتشاف الأسماء التي أصبح لها فيما بعد شأن كبير في المسرح الإنجليزي، أمثال هارولد بنتر وجون آرْدن وجون أوزْبورْن، فقد استغلت نفوذها كرئيسة لقسم النصوص في الترويج لأعمالهم وأخرجت بعضها للإذاعة في البرنامج الثالث. وإليها أيضاً يعود الفضل في ذيوع شهرة «ساميول بكت» في إنجلترا. كان «بكت»

معروفاً في القارة الأوروبية وخاصة في فرنسا، فهو يكتب باللغة الفرنسية بالجودة نفسها التي يكتب بها بالإنجليزية. لقد أحبه الألمان لأنهم وجدوا في القتامة الموحشة التي تشيع في أعماله شيئاً صادف نزوعاً في طبعهم، وأحبه الفرنسيون لأنهم أعجبوا بجرأته اللغوية، وأغوتهم موهبته، وهي موهبة يمتاز بها الكتّاب الإيرلنديون عموماً، في خلط الجد بالهزل ودفع الأشياء إلى ما وراء حدود المعقول. أما الإنجليز الأنجلوسكسون فقد انتظروا إلى أوائل الخمسينيات إلى أن قُيِّض لـ «بكت» أناس أمثال «باربرا براي» يفتحون عيونهم على أبعاد عبقرية هذا الكاتب الفذ.

٩

ذلك الكاتب الكبير، ويا للغرابة، قد وجد في «منسي» إنساناً يجذب اهتمامه ويستحق أن يقضي معه الساعة والساعتين، وأصبح «منسي» بعد ذلك يشير إليه باسم «سام» كأنه صديقه الحميم وكأنه يعرفه منذ سنوات.

ماذا وجد «ساميول بكت» في منسي؟ إنه يبدو كأنه على طرف نقيض منه. فهذا رجل مترهب قضى حياته يحدق في أغوار ذاته، ويعاني أوجاعاً روحية وعقلية مفرطة. كل ذلك يظهر في وجهه الغريب، الحاد التقاطيع المليء الأخاديد، كأن الزمن حفر عليه بمعول. العينان اللامعتان، نظراتهما مركزة، فيهما خليط من التحدي والذعر، كأنه يحدق في شيء مهول لا يراه أحد غيره. لقد حدق الكتّاب والشعراء والرسامون والفلاسفة قبله في تلك الهوة وأصيبوا

بالذعر. بعضهم انتحر، وبعضهم أصيب بالجنون، وآخرون لجأوا إلى وسائل شتى ليسرّوا عن أنفسهم. ولكن هذا رجل فعل ما فعله أبو العلاء الضرير، فأخذ نفسه بالشدة، وعاش في عزلة متفرغاً تماماً لهمومه العقلية والروحية. و«منسي» كما خيّل لي، عاش على سطح الحياة يركض من تجربة ليدخل في تجربة، ولا يلبث طويلاً حتى يرى ما تحت السطح، يثرثر ويضحك، وتحيط به أينما ذهب، جلبة وضوضاء. لكن من المؤكد أن «بكت» قضى أيضاً من وقته يستمع إلى «منسي» ولا بد أنه كان مستمعاً، فإن «منسي» لم يكن يترك لأحد حتى «بكت» فرصة للكلام، ومن المؤكد أيضاً أنه قرأ كتابات «منسي» على علاتها، ولعله وجد فيها شيئاً جذاباً، كما يجد كبار الرسامين أحياناً أشياء جذابة في رسوم الأطفال. ولعل ذلك الكاتب الذي يزن الكلمات بميزان، أعجب بجرأة إنسان يقول، ولا يبالي بما يقول.

من حسن حظ «بكت» أن «منسي» كان يلمّ بباريس كما يهب الإعصار، فيمكث اليوم واليومين ثم يختفي. و«بكت» يقضي معظم وقته في الريف فكان «منسي» يصادفه أو لا يصادفه. ولكنه كان دائماً يقابل «باربرا براي» بل إنه كان يجيء إلى باريس خصيصاً لمقابلتها. يكلمها بالتلفون أينما كان من واشنطن أو لندن أو القاهرة أو الرياض، ثم يحل فجأة ودائماً يجدها كأنها تنتظره، كما تنتظر الأم أوْبة طفلها. حين كنت أكون في باريس كنت أحضر تلك المقابلات. يكون «منسي» على سجيته تماماً. يضحك ويثرثر، وهي وأنا نستمع، وأنا أؤدي دوري المعتاد كممثل مساعد، أوقظ ذاكرته وأتم له جملة وأعطيه بداية القصة ليستهل هو في روايتها، تستمع باربرا وعلى وجهها حنو عظيم. تقول وهي تضحك ضحكتها الخجولة المهذبة:

«أنت ومنسي يجب أن تشتركا في تقديم كوميديا على المسرح».
وأقول لها:
«مثل لوريل وهاردي».
ويقول «منسي»:
«أو أبوت وكوستيللو».

كل مرة نكتشف معها مطعماً جديداً في ذلك الحي من باريس الذي تعرفه كراحة يدها. مطاعم صغيرة، كل منها يتخصص في نوع معين من الطعام رخيصة الأسعار لا يؤمها السياح. آخر مرة اجتمعنا معاً كان في مطعم يتخصص في الأسماك والأصداف، قريب من النهر، في الضفة اليسرى. كان «منسي» يصطحب زوجته العربية المسلمة، ويحمل طفله عبد العزيز على كتفه. أسماه عبد العزيز على اسم الشيخ عبد العزيز التويجري، فقد احتضنه ورعاه طوال مدة إقامته في الرياض. وقد حكى لنا «منسي» في تلك الليلة كيف أنه خرج رابحاً مالياً من ذلك الزواج، فقد تكفل الشيخ عبد العزيز بجميع النفقات، وحجز للعروسين جناحاً في الهوتيل على حسابه وأعطاه مبلغاً إضافياً نقداً. وحين جاء وقت الذهاب إلى الهوتيل لم يجدوا «منسي» وبحثوا عنه فوجدوه نائماً في غرفة من غرف الدار. وحكى لنا أيضاً أنه حين أراد أن يطلب العروس من أهلها ضربوا له موعداً، ووصفوا له كيف يصل إليهم، فذهب إلى دار أخرى، وظل ينتظر زمناً طويلاً إلى أن جاء أحد أهل البيت فوجده جالساً. سأله من هو وماذا يريد. قال «منسي»:

«أمال فين الجماعة؟».
«أي جماعة؟».
«الله دا مش بيت...؟».

كل هذا وأصهاره الجدد ينتظرونه في بيت آخر. وأخيراً وصلهم وقد كادوا ييأسون منه وينفضّون.
حين جاء وقت دفع الحساب تصدت له «باربرا». دائماً إما تدفع هي أو أدفع أنا و«منسي» ينظر إلينا وكل منا يلح، وكأن الأمر لا يعنيه ليس لأنه بخيل، فقد كان كريماً جداً بعض الأحيان، ولكن لأنه مع أناس معينين كان يضع نفسه في وضع الذي يأخذ ولا يعطي، وكأنه يؤكد محبته بهذه الطريقة. لكنني هذه المرة صممت أن يدفع «منسي» الحساب. قلت لباربرا مستعيراً وصف عبد الرحيم الرفاعي له:

«هذا البغل رجل ثري. جاء إلى باريس في سيارة أمريكية طويلة عريضة ونزل في هوتيل ذي خمس نجوم. وثمن هذا المعطف من الفراء الذي يلبسه وحده يكفيك شهراً كاملاً. لماذا تدفعين أو أدفع أنا؟ أنت وأنا فقيران».

قال لي «منسي»:
«بس بلاش غلبة. ادفع أو سيب باربرا تدفع».
أحرجت زوجته التي يبدو أنها لم تكن عرفت طباعه بعد. قالت له:
«يا احمد ادفع الحساب يا أخي».
قال لها ضاحكاً:
«طيب أدفع وأمري لله. لو كنت عارف اني «حاتوكح» بالفاتورة كنا طلبنا حاجات أرخص».

حين مات، لم أشأ أن أتصل بـ«باربرا» إلا بعد زمن، فقد خفت ألا تكون قد سمعت النبأ وكنت أعلم وقع ذلك عليها. وجدتها تعلم، وكانت مبتئسة أكثر حتى مما توقعت. قالت لي في نهاية المكالمة:

«طبعاً سوف تكتب عن (منسي)».
«كنا قد اتفقنا أن نكتب قصة حياته معاً، باللغة الإنجليزية ثم باللغة العربية».

«كان سيكون كتاباً مهماً... ورائجاً أيضاً... «منسي» كان إنساناً مهماً ونادراً... على طريقته».

«الآن، بعد موته، لا أدري... توجد أحداث لا أعرفها... وأشياء كان أحسن أن يرويها هو، بطريقته... سوف أفكر... لعلني أكتب عنه، ولكن بعد حين».

١٠

في طريقنا إلى مقر اتحاد طلبة جامعة لندن، سألني «منسي» عن قضية فلسطين.

كانت جرأة كبيرة من اتحاد الطلبة أن يختار ذلك الموضوع، في تلك الأيام العصيبة أوائل الستينيات:

«هذا المجلس يوافق على أن تقوم دولة مستقلة للفلسطينيين في فلسطين».

ولا أدري من الذي اختار «منسي» ليكون المدافع الرئيسي عن قضية فلسطين تلك الليلة، في مواجهة خصم قوي شديد المراس. ولكن لأنه كان يحب الجدل، ويحب الظهور والضوء فلا بد أنه بذل

جهداً ليحصل على الدور. كان المتحدث الرئيسي المعارض له، هو مستر ريتشارد كروسمان.

«ريتشارد كروسمان؟ طز. وإيه يعني؟».

لكن «ريتشارد كروسمان» لم يكن رجلاً سهلاً، في الواقع، ولو كان المعني بالأمر شخصاً آخر غير «منسي» لحسب لمواجهته ألف حساب. كان من مفكري اليسار المعدودين، ومن المنظرين الكبار في حزب العمال. عمل أستاذاً في جامعة أوكسفورد قبل أن يصبح نائباً في البرلمان. وقد صار فيما بعد وزيراً ومستشاراً أثيراً عند هارولد ولسن رئيس الوزراء. ولما ترك الوزارة أصبح رئيساً لتحرير مجلة الـ «نيو ستيتسمان» الواسعة النفوذ. وكان قد اشترك من قبل في لجنة كونتها الحكومة البريطانية لدراسة أوضاع العرب واليهود في فلسطين ورفع تقرير عن ذلك. وكان منحازاً تماماً لوجهة النظر الصهيونية.

قال لي «منسي» ونحن في سيارته تلك في طريقنا إلى مقر الاتحاد، وقد بقي أقل من ساعة على بدء المناظرة:
«اسمع. قول لي بسرعة إيه حكاية فلسطين دي».

«الله يخيبك. تقصد سوف تواجه ريتشارد كروسمان وأنت لم تستعد؟ ألا تعرف من هو ريتشارد كروسمان»؟

«بلاش غلبة. بس انت قول لي بسرعة إيه حكاية وعد بلفور ومش عارف إيه وشغل الحلبسة دا؟».

«يا ابني دا مش لعب. هذه مناظرة مهمة جداً... فرصة نادرة لن تتكرر. الله يخرب بيتك. انت مين اختارك لتكون ناطقاً باسم العرب؟».

«ما لكش دعوة. بس اديني شوية معلومات وما تخافش عليّ. قال ريتشارد كروسمان. طز! وإيه يعني؟».

انتابني قلق حقيقي. امتلأت القاعة بالخلق، والذين لم يجدوا أماكن وقفوا في الطرقات والردهات. سفراء عرب وأجانب، وأعضاء في البرلمان وصحافيون ومصورون. وراديو وتلفزيون. كان واضحاً أن كلاً من الجانبين، عرباً ويهوداً قد بذل جهداً كبيراً لحشد الناس. لا غرابة فإن المناظرات التي تعقدها اتحادات الطلبة في الجامعات، خاصة في أوسكفورد ولندن، لها تأثير ووزن معنوي كبير، ودائماً تحظى باهتمام وسائل الإعلام.

لحسن الحظ كان مع «منسي» فريق قوي، كان أحدهم، على ما أذكر، «أرسكن شلدرز» الكاتب الصحافي الذي دافع ببسالة عن العرب وقضية فلسطين بالذات، ثم لما ازداد عليه العنت والضغط، ألقى السلاح واختفى من الساحة تماماً.

حين خطا «منسي» إلى المنصة بقامته القصيرة، وجسمه الذي كانت نتوءاته قد بدأت تتضح من وراء ومن أمام هبت في وجهه عاصفة قوية من التشجيع والهتاف من الجانب العربي، زادته جرأة على جرأته. تكلم بجنان ثابت ولغة إنجليزية فصيحة. لكنه لم يقل شيئاً يجذب الاهتمام وقد حاول أن يغطي جهله بقوله، انه سوف يترك التفاصيل للفريق المساند له.

كل واحد من هؤلاء كان على بينة من أمره فتحدثوا كلهم حديثاً مفيداً مليئاً بالحقائق الدامغة.

ثم أعطى الرئيس الكلمة لريتشارد كروسمان، فخطا نحو المنصة بقامته المديدة، وسط زوبعة من التأييد ضمت كثيرين لم يكونوا مع العرب أو اليهود، ولكنهم كانوا يعرفون من هو ريتشارد كروسمان.

تحدث بصوت أجش تميز به، وأسلوب جمع فيه بين وقار أستاذ سابق في جامعة أوكسفورد ودهاء سياسي متمرس تعلم الصنعة في مؤتمرات حزب العمال، وغمار معارك مجلس العموم حيث واجه خصوماً ضخاماً من وزن ونستون تشيرشل وأنتوني أيدن. ماذا يصنع حامي حمى العروبة، فارسنا المسكين «منسي» في مواجهة هذا «العلج» الجبار؟ ولما فرغ ريتشارد كروسمان، تأكد لي أن قضية فلسطين قد خذلت تلك الليلة في تلك الساحة.

بعد ذلك حدث أمر عجيب لا أذكر بوضوح كيف حدث، ولكنني أذكر «علج» الصهيونية الجبار، وقد تقلص وصغر، يفتح فمه ويغلقه كأنه فقد القدرة على الكلام، وقد احمر وجهه وسال العرق على جبينه، وفارسنا «منسي» قد تحول إلى سبع كاسر، يجري غادياً رائحاً من آخر القاعة إلى المنصة يشير بيديه، ويشب في حلق الرجل ويكاد يضع إصبعه في عينه ويلح في سؤاله:

«قل لي. هل أنت بريطاني أم إسرائيلي؟».

يزداد وجه ريتشارد كروسمان احمراراً، وصاحبنا «منسي» يرمح كالغزال إلى آخر القاعة ثم يمرق كالسهم إلى المنصة، يمد كرشه إلى أمام ومؤخرته إلى وراء ويدير عينيه اللتين زادتا اتساعاً في القاعة،

وقد حلت عليه طاقة لا أدري من أين جاء بها.
«نحن نعلم أنك يهودي... لا اعتراض لنا على ذلك. من حق كل إنسان أن يكون كما يشاء... نحن لسنا ضد اليهود... لكن نريد أن نفهم... ولاؤك لمن؟ مع بريطانيا أم مع إسرائيل؟».

لم يكن ريتشارد كروسمان يهودياً حسب علمي ولكنه كان من الواضح أن «منسي» أراد أن يزعزع الثقة في مصداقيته ويمزق ثوب الوقار والاحترام الذي يكسوه. وقد نجح في ذلك تماماً. حوّل المناظرة إلى مهزلة وحوّل خصمه إلى شيء يثير الضحك.

ولما عدّت الأصوات، انتصر، ويا للعجب، الاقتراح الذي دافع عنه فارسنا «التعبان»: وهو لا يعرف عن قضية فلسطين أكثر مما يعرف راعي الابل في بادية كردفان. وكان ذلك النصر دليلاً آخر أضافه «منسي» إلى ذخيرته، أن الصدق والمنطق واتباع الأصول، لا تجدي، إنما الذي يجدي في الحياة وفي قضية فلسطين وفي كل شيء، هو «الأونطة» و«شغل الحلبسة».

لفتت تلك الليلة الأنظار إليه، ومنها نظر الرئيس عبد الناصر الذي أرسلت له السفارة المصرية ـ حسب رواية منسي ـ تقريراً مدعماً بالصور كيف أن شاباً مصرياً «مسح الأرض» بأحد جهابذة السياسة في بريطانيا. ولعل ذلك كان صحيحاً فقد تلقى «منسي» دعوة لحضور مؤتمر للمغتربين المصريين وبذلك بدأت مرحلة جديدة في حياته. ولكنه قبل ذلك قام بعمل ربما يكون أجرأ عمل أقدم عليه وكاد بسببه أن يطرد من بريطانيا.

١١

عند باب «بوش هاوس» وأنا في طريقي إلى محطة «بادنجتن»، لآخذ القطار إلى أكسفورد، عرض لي «منسي».

«طيب. رايح فين؟».

«أكسفورد».

«عندك إيه في أكسفورد؟».

«بروفيسور توينبي»، يلقي محاضرة، عن قضية فلسطين».

«برضه فلسطين، يا أخي خليك في لندن. الويك أند قربت».

«هذه محاضرة مهمة».

«خلاص أجي معاك».

كانت تلك عادة «منسي». ضحكت لأنه كان يجدني ذاهباً إلى أي مكان فيقول لي «أجي معاك» وقد رافقني بالطريقة نفسها إلى

الهند وإلى أستراليا.

«يا أخي أنت صايع ما عندك أهل؟ ما تروح لزوجتك وعيالك».
«بلا زوجة بلا عيال بلا غم. يا لك يلا بينا».

كان محظوظاً في «ماري» تلك السيدة الطيبة. تزوج وأنجب، وعاش كما يحلو له، كأنه أعزب. يسافر ويعود ويظهر ويختفي، وهي في حالها، كأنه ضيف.

أحياناً كنت أنتبه فجأة أنني لم أره منذ أسبوعين أو ثلاثة فأتصل بداره، فترد عليّ «ماري».
«منسي ليس موجوداً».
«أين هو؟».
«لا أعلم».
«منذ متى».
«منذ أسبوعين».
«ولا تسألينه أين يذهب»؟
«أنت تعرف «منسي». هكذا هو. لكنه يعود دائماً».

ظل يذكرها كثيراً بعد أن توفيت في حادث حريق في دارهم في واشنطن. وكان يقول إنها قديسة. وأشهد أنها كانت شيئاً من ذلك.

«قطار بتاع إيه يا شيخ. نروح بسيارتي».
«لا يا عم. لا يمكن أروح لحد أكسفورد «بالقملة» بتاعتك دي. تسمي دي سيارة؟»

«أنت لسه في زمن الـ «ببل»؟ يا ابني احنا دلوقت في مرحلة جديدة. اشتريت سيارة محترمة... حاجة أبهة».

اتضح أنها سيارة «نصف عمر»، لا أذكر نوعها اشتراها بطريقته الملتوية. صاحبه الجزار، يعرف واحداً، يعرف صاحب كاراج، يعرف واحداً يتاجر في السيارات المستعملة.
«لكنني أحب السفر بالقطار».

لو كان لي من الأمر شيء، لربطت العالم العربي كله، من طنجة إلى مسقط، ومن اللاذقية إلى نيالا، بشبكة من السكك الحديدية مثل قطارات الـ .T. G. V السريعة في فرنسا، وقطارات الـBullit في اليابان. الإنسان الذي كان يسير الشهر والشهرين بالبعير، من صنعاء إلى مكة، لماذا قفز فجأة لهذه الوسيلة الجنونية؟ المطارات مهما بلغت، تبدو شيئاً موقتاً. محطات السكك الحديدية لها طعم آخر وسحر خاص. المحطات الخلوية والمناظر المتنوعة. تعرف أنك قد قمت من مكان ووصلت إلى مكان. تنام وتقرأ وتصادف أصنافاً من خلق الله. ليس مثل الطائرة. تغمض وتفتح فإذا أنت قد انتقلت من حال إلى حال.

«يا للا بلاش كلام فارغ. يا للا يا أخي سيب البطء بتاعك دا. أحسن تضيع مننا المحاضرة».

عكس الآية كعادته، وتصدر المجلس، وأصبح كأنه هو الذاهب إلى أكسفورد، وأنني مجرد تابع له.

في منتصف الطريق، قال لي:

«في واحد صاحبي هنا، نمر عليه خمس دقائق».
«مين»؟

«واحد من المسؤولين الكبار في شركة آرثر رانك».
«يا أخي خلينا نواصل. المحاضرة في السابعة مساء».

«أصلهم ناويين ينتجوا فيلم عن «لورنس». تعرف مين حيمثل دور لورانس؟ ألك جنس. في دور لعربي شاب، أهم دور بعد «لورنس» بيفكروا في عمر الشريف. أنا ناوي ألطش الدور. المخرج حيكون «ديفيد لين» أخو «تانجي».. تانجي وعدني يكلم أخوه».

ضحكت ولم أقل شيئاً.

«بتضحك ليه؟ هو يعني عمر الشريف أحسن مني»؟
«أبداً. مين قال عمر الشريف أحسن منك»؟
«إذا كانت الحكاية انه بيتكلم إنجليزي كويس، أنا أجدع منه ألف مرة في الإنجليزي».
«مؤكد».
«وإذا كانت حكاية تمثيل، دا حتى سير لورنس أليفييه أعجب بتمثيلي».
«عجيب».
«أنت مش مصدق؟ أنت عارف مين علم لورنس أليفييه ازاي يمثّل شخصية المهدي في فيلم «الخرطوم»؟
«أنت»؟

«أيوه يا سيدي أنا. الراجل كان حيجنن لما قرأت له من الذاكرة كل

المونولوجات بتاع هاملت... بنفس الطريقة اللي هو أداها بيها في الفيلم».

«يا ابني سيب الهزار. الحكاية مش لعب. الأونطة تنفع في كل شيء إلا في الفن.. انت تعرف إنجليزي كويس وتحفظ مونولوجات هاملت وريتشارد الثالث. لكنك ممثل فاشل. عمر الشريف ممثل عالمي. وأنت مين؟ مين سمع بـ«منسي» بسطاوروس. حتى اسمك لا يصلح للسينما. وبعدين... عمر الشريف رجل وسيم وأنت ما شاء الله».

«أنا مش وسيم؟ البنات بتقول لي إني أشبه علي خان. في الاحتفال في قصر بكنجهام الأميرة مارغريت أخذت بي».

«أنت قابلت الأميرة مارغريت»؟

«إلاّ قابلت الأميرة مارغريت! يا أخي ما انت عارف القصة من طقطق للسلام عليكم».

مجرد تذكر تلك الحادثة أسعده جداً فضحك بطريقته وأنا أيضاً ضحكت، فقد كنت أعلم أنهم كادوا يطردونه من إنجلترا.

وجدنا داراً كبيرة تطل على واد جميل، ورجلاً إنجليزياً كأنه جاء من عصر آخر. ومع أننا حللنا عليه على غير موعد فقد فرح حقيقة للقاء «منسي».

«مايكل! يا لها من مفاجأة سارة. عجيب أنك جئت فقد كنت أفكر فيك».

«قلت أمر عليك، أنا في طريقي إلى أكسفورد للاستماع إلى محاضرة هامة يلقيها بروفيسور توينبي.. آه.. نسيت أن أقدم لك مستر صالح.. صديقي. يعمل معي في الـ«بي. بي. سي» (B. B. C.). التفت الرجل إليّ:
«آه. أنت إذاً تعمل مع مايكل»؟

«نعم. مستر.. مايكل من كبار المسؤولين في الـB. B. C. كما تعلم. وهو رئيسي المباشر».
لم يخف «منسي» سروره أنني أؤدي الدور كما يجب، وكأنه أراد أن يرد لي التحية، فقال للرجل:
«مستر صالح من المعاونين الأكفاء الذين يعملون معي».
انصرف الرجل كلياً إلى «منسي» واتضح لي من الحديث لماذا كان يفكر في «منسي» ولماذا فرح لمقدمه.

١٢

كان «منسي» يضحك كعادته في أغلب الأحيان، وقد وقف الرجل من شركة «آرثر رانك» عند باب داره، يلوح لنا بيده.
أخلدت السيارة إلى الطريق، واعتدلت في سيرها.

سيارة «نصف عمر»، ايْ نعم، وحصل عليها «منسي» الله أعلم كيف، ايْ نعم. ولكنها سيارة لها نوافذ وأبواب، تصل سرعتها إلى مائتي كيلومتر في الساعة.

حياة «منسي» يمكن أن تقاس، بوجه من الوجوه بأنواع السيّارات التي اشتراها، أو هبطت عليه من السماء. في آخر حياته، حين أصبح «سيّد ثاتشبري» أو «لورْدْ ثاتشبري»، كما كان يقول، ويسكن في القصر الذي زعم أنه كان استراحة صيد للملك جون،

كان يخرج كل صباح في زي الفُرسان، ممتطياً صهوة حصانه «سامْ». يمر على قطعان البقر والضأن، ويتفقد أشجار البلوط والصنوبر والتفاح والتوت والفراولة. جاره من ناحي الشرق لورد «منتباتن» عم الدوق زوج الملكة، أو خاله، وجارته من ناحية الغرب ليدي هذه أو تلك. ثم يصل إلى الاصطبل. يربت على رقاب الخيل ويحادثها ويستنشق تلك الرائحة الفريدة التي تنبعث من الخيل في مراحها. يختم جولته بالكراجات. يفتح الأبواب فإذا السيارات مصطفة كما الخيل في الاصطبل. يتفحصها واحدة واحدة. يرفع الغطاء ويفتح الباب ويدخل. يجلس ويمسك بعجلة القيادة، وينطلق بها وهي ساكنة، في آفاق رحبة ولا بد. سيارة الفورد وسيارة الروفر وسيارة البيوك وسيارة الجاكوار وسيارة المرسيدس ثم أخيراً يصل إلى نهاية المطاف، إلى سيارة... الرولز. يرفع عنها الغطاء كما يرفع النقاب عن وجه العروس الجميلة المشتهاة. يدخل ويملأ رئتيه بذلك العطر العجيب. يمسك بعجلة القيادة، ويدير المحرك ثم يوقفه. يخرج ويقف على حافة حوض السباحة وينظر إلى خياله يتفرّق ويتجمع ويطول ويقصر على صفحة الماء. قليلون جداً هم الناس الذين يمشي الواحد منهم حافياً أو يركب حماراً أو بعيراً وتراه عند الأفق، شامخاً كأنه أمير من أمراء الحياة. كان «منسي» قد وصل بالفعل إلى نهاية المطاف، وكأنه فيما يبدو، لم يجد بعد ذلك سبباً للبقاء.

لكنني أستبق الأحداث. نحن الآن في بداية الرحلة، في طريقنا إلى أكسفورد، في سيارة لها نوافذ وأبواب، تمد رجليك، وتفتح النافذة إذا شئت، وتستنشق هواء الريف الإنجليزي المنعش إذا شئت. تتفلّت الحقول على الجانبين، حقول ناعمة بتلالها المنخفضة مثل طيّات الثوب، والقرى الأنجلوسكسونية بأبنيتها الحجريّة وسقوفها الأرْدُوازية في قِيعان الأودية وعلى سفوح التلال. تركنا الرجل الإنجليزي من

شركة «آرثر رانك» واقفاً أمام باب داره، يلوح لنا بيده، وفي عينيه حلم لن يتحقق، كما أن حلم «منسي» في الحصول على دور عمر الشريف في فيلم «لورنس العرب» لن يتحقق.

كنت قد ألممت بطرف من القصة من الحديث بين «منسي» وصاحبه الإنجليزي، وقد آثرت ألاّ أسأله الآن ونحن في طريقنا إلى أكسفورد، وأن اتركها تتقحم وتتغيّر وتتبدّل في خياله. كنت أشهد الواقعة معه، ثم يرويها فإذا هي مختلفة تماماً عمّا رأيت وسمعت.

وجدنا كرّار أحمد كرّار وحسن بشير في استقبالنا.
قال لي كرّار وهو ينظر إلى «منسي»:
«مين الحلبي دا ألْ جبته معاك؟».
نسمي أشقاءنا المصريين «حلَب» و«أولاد ريفْ» بدافع المحبة، وهم يسموننا أشياء بدافع المحبة.
قال «منسي» وكأنه يعرف الرجل من زمن:
«إيه يا خوي حَلَبي دي؟ أنت فاكرني من المصريين بتُوع وجه بحري؟ دا أنا صعيدي من قرايبكم».

كان كرّار، رحمه الله، سودانياً قُحاً، فيه كل فضائل السودانيين الأقحاح، وبعض مساوئهم. كان رجلاً «شيخ عرب» كما نقول، حتى في بذلته الإفرنجية، وفي أكسفورد، كأنه يتلفع ثوباً ويمسك عصا، ويجلس في ظل شجرة كبيرة وسط قبيلة. عمل في الإدارة منذ عهد الإنجليز. فكان مأموراً ومفتّش مركز، ووصل في العهد الوطني إلى رتبة محافظ. وقد عمل مساعداً للأمين العام لمجلس الوزراء في حكومة الصادق المهدي الأولى، وصار وزيراً لشؤون مجلس الوزراء في عهد النميري. وكان خبيراً بشؤون جنوب

السودان. ذلك لأن «منسي» دخل معه بعد ذلك في جدل حاد عن الجنوب وهو لا يعرف عنه إلاّ كما يعرف في قضية فلسطين.

أما حسن بشير، فهو زميلي وصديقي منذ عهد الدراسة، عمل في وزارة المالية، وأصبح مساعداً لمحافظ البنك المركزي. وكان بوسعه أن يذهب أبعد، ولكنه إنسان واضح، لا يحب اللّف والدوران، فلم يرق ذلك لأصحاب الشأن.

١٣

جلسنا في الصف الأول، وكانت القاعة ممتلئة. لا عجب، فقد كان المحاضر بروفود أرنولد تُوينْبي أعظم مؤرخي عصره. ثم إن الحدث كان الأول من نوعه. كانت مناسبة تاريخية إذا صح القول. ذلك لأن كلاً من اتحاد الطلبة العرب في جامعة أكسفورد واتحاد الطلبة اليهود وجه الدعوة لبروفيسور توينبي لإلقاء محاضرة عن قضية فلسطين، فأجابهم بأنه رجل تقدمت به السن ولا يقوى على إلقاء محاضرتين، ولكن يسرُّه أن يلقي محاضرة واحدة على العرب واليهود مجتمعين. قبل الطلبة اليهود بلا تردد، فقد كانوا كعادة اليهود عموماً، لا يجدون فرصة للتحدث إلى العرب إلا انتهزوها. أما العرب فمنهم من رفض ومنهم من تردَّد.

تغيّر الحال الآن.

في تلك الأيام كان الاتصال باليهود وحتى مجرد التحدث إليهم أمراً يكاد يكون محرّماً على العربي. كان أمراً عجيباً تلك الأيام، أن ترى عربياً ويهودياً دعيا مع آخرين في تلفزيون من تلفزيونات أوروبا. يرفض العربي أن يجلس في غرفة واحدة مع اليهودي، فيجلسونه في غرفة منفصلة. ويقضون الوقت كله يضيقون الخناق على العربي، لماذا لا يريد أن يجلس في صعيد واحد مع اليهودي. ويخرج اليهودي منتصراً دون أن يفعل شيئاً. قليلون جداً من كانت عندهم الشجاعة للتمرُّد على هذا الحظر. أما نحن فقد كنا أغواراً ولم نكن نبالي.

نقول:
أليس لنا عقول مثل عقولهم، وحجج أقوى من حججهم؟

ـ كانت تزاملنا في الدراسة في جامعة لندن فتاة إنجليزية من أصل يهودي، أذكر اسمها جيداً رغم طول العهد. كان اسمها «شيرلي»، وكانت وسيمة الوجه، ضاحكة العينين، لها غمازتان على خديها، تفعلان الأعاجيب إذا ضحكت. وكنا خمسة. من مصر والعراق وفلسطين والمغرب والسودان. دائماً تجد شيرلي معنا. تؤثرنا على غيرنا وتأوي إلينا دون سوانا تقول لنا لماذا لا يعيش العرب واليهود في سلام؟ ونقول لها نعم والله، لماذا لا يعيشون في سلام! تقول لنا نحن أبناء عمومة وأقرب الناس بعضنا إلى بعض. ونقول لها صدقت. العرب أبناء إسماعيل بن إبراهيم، وأنتم أبناء إسحق بن إبراهيم.

اللغة العربية واللغة العبرية متقاربتان إلى حد بعيد.
صدقت يا شيرلي. هما متقاربتان إلى حد بعيد...

إذاً لماذا الحروب وإراقة الدماء؟ لماذا إهدار الطاقات وتبديد المال؟ لماذا لا يرفرف السلام بأجنحته على تلك الربوع؟ ونقول لها يا ليت السلام يرفرف على تلك اربوع! وأصدقكم القول، إن كل واحد منا، كان مستعداً، لو ترك له الأمر، أن يعقد صلحاً منفرداً مع «شيرلي».

وذات صباح جاءتنا تسعى، كما سعت اليابانية إلى صاحبها المصري في قصيدة شاعر النيل الشهيرة. قالت لنا، إنه الوداع.
«فيم الوداع وإلى أين تذهبين يا شيرلي؟».

نظرت إلينا متعجبة برهة، ثم أجابتنا كما أجابت اليابانية صاحبها المصري:

«فأجابتني بصوت راعني
وأرتني الظبي ليثاً أغلبا
نبأوني برحيلٍ عاجلٍ
لا أرى لي بعده منقلبا»

قلنا لها:
«ولكن لماذا؟».
نظرت إلينا كرة أخرى، بعينين غير ضاحكتين، وخدين بلا غمازتين. قالت:

«ألا تعرفون أن الحرب قد قامت بين مصر وإسرائيل؟».
قلنا لها، كما قال المصري لصاحبته اليابانية في القصيدة:
«قلت والآلام تغري مهجتي
ويكِ ما تفعل في الحرب الظباء؟»

قلنا لها:
«وأنت ما شأنك بالحرب؟».
قالت:
«أنا جندية في جيش الاحتياط الإسرائيلي، وقد دعيت للخدمة العسكرية».

نظر بعضنا إلى بعض، ودار بين كل واحد منا وبين نفسه، وبين كل واحد منا والآخرين حديث طويل في صمت. هل يعقل أن هذه الفتاة الجميلة اللطيفة تذهب إلى الحرب، وتحمل السلاح، وتحارب مع الأعداء، وتقتل العرب؟

ثم تحولت الحيرة إلى غضب عظيم. على أنفسنا، وعلى شيرلي، وعلى إسرائيل.

كنا في مقتبل العمر، عندنا، كما عند الشباب، قدرة عظيمة على التسامح. وأيضاً، كما عند الشباب، استعداد كبير للتضحية والفداء. إلا أن أحداً لم يطلب منا فعل أي شيء.

نحن وغيرنا. كثيرون من الشباب العرب ذهبوا إلى السفارة المصرية يعرضون التطوع. قالوا بارك الله فيكم. حين تدعو الحاجة إليكم سوف نتصل بكم. ولكن الجيش المصري مسيطر تماماً على الموقف.

ثم نظرنا إلى شاشات التلفزيون، فإذا الجنود الإسرائيليون يستحمون في قناة السويس.

صحيح أن الإنجليز والفرنسيين أعانوا إسرائيل في تلك الحرب، عام

٥٦. ولكن الأمر نفسه حدث بعد ذلك في حرب ٦٧.

أما «شيرلي» فإنها لم تعد. ولعلها قتلت أو قُتلت. ولعلها آثرت البقاء نهائياً في إسرائيل.

ما أعجب ما كانت تلك الأيام. ويا هلْ ترى، يا رعاك الله انتهت بعد الأعاجيب!

١٤

لا عجب أن القاعة امتلأت، فقد كان المحاضر هو بروفيسور أرنولد توينبي أعظم مؤرخي عصره، وأبعدهم نظراً، وأعمقهم إدراكاً. ذلك مؤرخ نظر إلى تاريخ الإنسانية كبحر متلاطم الأمواج، موجة تصعد وتبلغ الذروة، ثم تهبط وتنحسر، لتعلو موجة أخرى. حضارات تولد وتنمو وتزدهر وتذبل فتولد بدلاً منها حضارات جديدة.

جلسنا في الصف الأمامي، وكان «منسي» لا يكاد يستقر في مقعده، يتلفت يمنة ويسرة ويبتسم لكل من تقع عليه عينه، لقد أنعشه هواء أكسفورد. واستجابت روحه لمغناطيس ذلك المكان السحري. هذه المدينة الصغيرة التي تكتسب سمتها وروحها من وجود الجامعة فيها، هي عبارة عن رمز لأفضل، وربما أيضاً لأسوأ، ما في «الحضارة» البريطانية. يخرج البريطاني من هنا وهو يحمل

صك الانتماء إلى صفوة مميزة. رؤساء اتحاد الطلبة في أكسفورد، غالباً ما يدخلون البرلمان، وغالباً ما يصيرون وزراء. وقد ذهب من هذا المكان الصغير، أيام سطوة الأمبراطورية البريطانية شبان في العشرينيات من أعمارهم، لا يميزهم شيء إلا أنهم ينتمون لتلك النخبة الحاكمة، سيطروا على مصائر شعوب في الهند والسودان ونيجيريا وكينيا وفلسطين. وكان الواحد منهم يحكم رقعة أكبر من الجزر البريطانية.

كانت جامعة أكسفورد حلماً دفيناً عند «منسي»، حصناً من حصون الإنجليز لم يستطع اقتحامه. لذلك أشرق وجهه وتواترت لفتاته أول ما ظهرت لنا أبراج الكليات، ثم لما اجتزنا المباني التي تجمع في معمارها بين هيئة الكنائس وقلاع القرون الوسطى.. الحيطان السميكة والأبواب الضخمة والنوافذ المستطيلة والباحات الداخلية التي اقتبسوها ولا بد من المعمار العربي الأندلسي.. وكان «منسي» يردد أسماء الكليات كأنه ينشد نشيداً أسطورياً قديماً... باليول.. ميرتن... مودلن... ووادهام... وكيبل... يبتسم ذات اليمين وذات الشمال وخاصة للطالبات، وهن يهرولن من قاعات المحاضرات أو يمتطين الدراجات... ومن حين لآخر نمر بأستاذ يسرع الخطى وقد نفخ الهواء عباءته السوداء.

نظر بروفيسور توينبي إلى القاعة الممتلئة، وأدار عينيه المشعتين في وجوه الحضور، عرباً ويهوداً، وابتسم ابتسامة تحمل معاني كثيرة.

اجتمع العرب واليهود لأول مرة في جامعة أكسفورد، ولعل المرحوم كرار كان أحد الذين أقنعوا الطلبة العرب بالقبول، فقد كان أحد زعمائهم. كان هو وحسن بشير يحضران لدراسات عليا في كلية

«سانت أنتوني».

تحدث «توينبي» حديثاً مليئاً بالعلم والحكمة وأذكر من بعض ما قاله في تلك الليلة أن قصة العرب واليهود في فلسطين، تشبه المآسي الملحمية الإغريقية، شر يقود إلى شر يقود إلى شر في سلسلة لا نهاية لها. تحدث طويلاً عن الشر الذي حاق باليهود في أوروبا، في روسيا وإيطاليا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا. ذكّر مستمعيه أن اليهود كانوا يصلبون في الميادين العامة في إنجلترا حتى القرن الثامن عشر. تحدث عن معاناة اليهود على أيدي النازيين في ألمانيا، وقال إن تلك البشاعة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الإنسانية، لا يمكن أن تفسر بأنها عمل شخص واحد مختل العقل، هو أدولف هتلر، ولكنها إثم تحمل وزره حضارة أوروبا الغربية بأسرها.

في مقابل ذلك أفاض «توينبي» في الحديث عن التسامح الذي وجده اليهود من العرب والمسلمين وخاصة في الأندلس، حيث أطلقت الحضارة العربية الإسلامية العنان لطاقات اليهود، فكان منهم وزراء وسفراء وعلماء وفلاسفة. وتعجب كيف أن شعباً عانى ما عاناه اليهود من عنت واضطهاد، على أيدي الأوروبيين، يلحق الاضطهاد نفسه بقوم لا ذنب لهم فيما حدث. واختتم محاضرته بقوله إن على الفريقين أن يعملا على كسر هذه الحلقة الشريرة والخروج من ذلك المأزق التاريخي، وإلا فإن الأمر سوف ينتهي حتماً بكارثة تحيق بالبشرية بأسرها، كما يحدث في المآسي الإغريقية. وناشد اليهود خاصة أن يعملوا الفكر بشجاعة وجرأة لإيجاد وسيلة أخرى غير العنف للخروج من ذلك المأزق التاريخي.

صفق أكثر الناس مجاملة، لا تأييداً، فقد كان حديث «توينبي» أكثر

حكمة ورصانة مما كان يطلبه العرب واليهود تلك الأيام. أما العرب فقد كانوا في تلك الأيام العصيبة المريرة يريدون انحيازاً واضحاً إلى جانبهم. وأما اليهود، فقد كانوا وما زالوا مزهوين بباطلهم. ولكن هذا رجل فكر طويلاً في مصائر الشعوب والأمم، ورأى أكثر من أي مؤرخ آخر في عصره، مسيرة الإنسان منذ فجر التاريخ. كشيء واحد متكامل مترابط الأجزاء، وكان قد بلغ الثمانين أو قاربها، فلم يكن يهمه أن يرضى العرب أو اليهود.

ثم حل على القاعة صمت عميق، كما يحدث للناس حين يلقى عليهم قول طريف، يعرفون بعضه ويجهلون البعض الآخر.

من قلب ذلك الصمت، انبثق «منسي» فجأة، تماماً كما ترمي حجراً في بحيرة ساكنة.

١٥

أدار «منسي» ظهره لـ«بروفيسور توينبي» وجال بعينيه الواسعتين في الحضور الذين أخرجهم وقوفه عن صمتهم فشخصت إليه أبصارهم. وضع يده اليسرى في جيبه، ونفخ صدره، ورفع رأسه إلى أعلى، ثم دار نحو «بروفيسور توينبي» ببطء، ونصف وجهه الأيسر ما يزال يميل نحو الجمهور. اتخذ وقفة دراماتيكية، ولعل صورة لورانس أوليفييه، وهو يحث جنوده على القتال في دور الملك هنري الخامس في معركة «أجنكورت» ضد الفرنسيين، كانت ماثلة في مخيلته. كان يحفظ عن ظهر قلب أغلب خطب الملك هنري في مسرحية شيكسبير تلك، ويؤديها بصوت قريب من صوت لورانس أوليفييه. أو لعله تمثل نابليون في معركة «أوسترلتز»! كانت أحلام العظمة تخطر أحياناً على بال «منسي»، ولكن كما تمر سحابة الصيف في السماء، سرعان ما تتبدد دون أن تترك أثراً. إن قامته على الأقل، تقرب من قامة نابليون، وهو في وقفته هذه يذكر المرء من بعيد، من

بعيد جداً، بوقفة نابليون في تلك اللوحة الشهيرة التي رسمها الفنان «دافيد». هذا المكان العريق، أكسفورد، مفعم بالتاريخ والأوهام، والأحلام التي تبددت كسحائب الصيف، والأحلام التي بلغت غاياتها. ولا بد أن شيئاً ما قد حدث لـ «منسي» فأخرجه عن طوره.

قال بلهجة أكثر تقعراً من المعتاد، وهو يضغط على «بروفيسور» و«توينبي» التي كان ينطقها «تا أنبي»، بطريقة الإنجليز الأرستقراط:

«بروففففسور تاأنبي... إنني استمعت إلى محاضرتك القيّمة باهتمام بالغ، ووجدت فيها... وجدت فيها أشياء كثيرة تدعو للتفكير. وأود بادئ ذي بدء... أن أشكرك أجزل الشكر... بالأصالة عن نفسي، وبالإنابة عن الحاضرين... وأظن أنني أعبر عنهم جميعاً حين أقول.... إنها كانت محاضرة قيمة و.... ومفيدة جداً... ولكن اسمح لي أن أقول.... إنني دهشت حقاً.... أن أسمع مؤرخاً مثلك... مؤرخاً عظيماً مثلك، ليس معروفاً عنه أنه معاد للعرب... بل لعلنا نحن العرب نعتبرك واحداً من أصدقائنا... نعم، أدهشني حقاً قولك.... إن العرب، طوال تاريخهم، أساءوا معاملة اليهود... واضطهدوهم... وعذبوهم...».

كنت أجلس إلى يمينه، وحسن بشير وكرار إلى يساره. نظرنا ثلاثتنا إليه مذعورين في وقت واحد. وسرت همهمة بين الحاضرين وسمعت بعض الضحكات المكتومة. وأخذت أجذبه من ذيل «جاكتته» لأجلسه. ولكنه كان قد تقمص دوراً وأبحر بعيداً وأصبح من الصعب إيقاظه من حلمه...

«وتقول... إن على العرب الآن.... أن يساعدوا اليهود على الخروج

من المأزق التاريخي الذي وضعوهم فيه... يا سيدي البروفيسور.... من الذي وضع اليهود في مأزق تاريخي؟ ألستم أنتم؟ الأوروبيين؟ أنتم الذين اضطهدتم اليهود... وعلقتموهم في المشانق في الميادين العامة... قلت إن العرب ما زالوا يشنقون من بقي عندهم من اليهود في الميادين العامة... مجرد افتراء ودعايات صهيونية كاذبة...

أنتم الذين فعلتم ذلك... وضعتموهم في معسكرات الاعتقال... وفي أفران الغاز... والآن تريدون منا نحن العرب... نحن الأبرياء الذين لا ذنب لنا فيما حدث لليهود... أن نكفر عن خطيئتكم... أن نكسر كما قلت يا سيدي البروفيسور... الحلقة الجهنمية... التي صنعتموها أنتم الأوروبيون... لا يا سيدي. إن فلسطين أرض عربية. وقد ظلت عربية منذ... منذ... ثلاثة آلاف عام... وسوف تظل عربية إلى الأبد... سوف نستردها بالقوة إن عاجلاً وإن....».

تحولت الهمهمة إلى ضوضاء، وارتفعت أصوات من أطراف القاعة تطلب منه باللغتين العربية والإنجليزية أن يجلس. ولما نجحت أخيراً في جره جرّاً إلى الجلوس، قال لي:

«إيه الحكاية؟ هو أنا قلت حاجة غلط؟».
«الله يخيبك. أسكت. أفهمك بعدين».

علت وجه العالم الجليل «بروفيسور توينبي» حيرة عظيمة. وظل بقية المساء، وهو يرد على الأسئلة، ينظر إلى «منسي» من وقت إلى آخر، كأنه يحاول أن يحل معضلة. لا بد أنه، ببساطة العلماء من طرازه، ظن أنه لا بد أن يكون قد أساء التعبير عن أفكاره، وإلا فكيف

يساء فهمه إلى ذلك الحد. أما «منسي» فقد جلس هادئاً مطمئناً وكأنه لم يفعل شيئاً.

ولما خرجنا، قال له كرار، وكان، كما يحدث لـ«منسي» عادة، قد ألفه كأنه يعرفه من زمن:

«يا صعيدي يا مغفل. يظهر أن المصريين بتاع القاهرة على حق. يظهر أن الصعايدة فعلاً اشتروا الترمواي... أنت بليد ما بتفهم الكلام ولا كنت سرحان؟».

ضحك «منسي» ضحكته الطفولية الجذابة، وقال بلهجة صعيدية مزيفة كما في الأفلام:

«بصراحة كدى يا رجاله... أصلو الأستاذ بتاعكم دا طول حبتين... وانا كنت تعبان... لأني مع عدم المؤاخذة... كنت أمبارح سهران سهرة حلوة في لندره... وبعدين سايق العربية لحد أكسفورد... رحت في سابع نومه...».

ثم أضاف:
«وبعدين يا أخي الواحد تعب من حكاية فلسطين دي». قال له حسن بشير:

«ولما أنت تعبان ونايم ومش فاهم الكلام... ما كنت تتلهى وتسكت. رحت عامل خطبة طنانة ولا كأنك جمال عبد الناصر. أنا افتكرتك حتقول (إن ما أخذ بالقوة لن يسترد إلا بالقوة)».
قال «منسي» ضاحكاً:

«دا أنت بتقول فيها؟ طب والنبي الجملة كانت على لساني لولا أن الأخ دا عمال يشدني، وأنا مش فاهم هو بيعمل كده ليه... دا أنا حتى استغربت الناس ما سقفتش ليه...».

قلت له معابثاً، وكنت أعلم أنه اختار الرقم اعتباطاً:
«مين قال لك إن فلسطين عربية من تلات آلاف سنة بس؟».
« أمال هي عربية من أمتى؟».

«من سبعة آلاف سنة على الأقل».

«لا يا شيخ! أنا افتكرتهم تلات آلاف. أصلو اليهود بيقولو إنها كانت بتاعتهم من تلات آلاف سنة، قلت يا واد خليهم تلات آلاف... أهو برضه كويسين... هي تلات آلاف سنة شويه يا رجاله؟».

١٦

كان «منسي» في أكسفورد مثل السمكة في الماء، كما يقال. وأصح من ذلك، أنه كان مثل حمار الوحش في الخلاء. تعرفنا على أناس كثيرين. قابلنا في كلية «سانت أنتوني»، كلية كرار وحسن بشير، الأخوين «ليونهارت» عالمي الاجتماع، وتعرفنا على الرجل الذي ترجم من اللغة الروسية رواية «دكتور جيفاكو» للكاتب الروسي الشهير «باسترناك» التي حولت إلى فيلم سينمائي مثل فيه دور «دكتور جيفاكو» عمر الشريف، غريم «منسي» في فيلم «لورانس». وقابلنا الكاتب الإنجليزي المعروف «جون وين» الذي كان في تلك الحقبة أستاذاً للشعر، هذا المنصب الذي ابتدعته جامعة أكسفورد خصيصاً للكتاب والشعراء. كان «منسي» على سجيته تماماً في ذلك العالم المفتوح المستنير، الذي يتحدث فيه الناس لمجرد متعة الحديث، ويلعبن بالأفكار كما تلعب بكرة الـ«بنج بونج». كان يدلي بدلوه مهما كان الموضوع، لا يهمه إن كان ملماً

به أو لا، وسواء كان علم اجتماع أو اقتصاد أو فلسفة أو سياسة أو أدباً. أحياناً يصيب وأحياناً يخطئ، ولكنه كان يعوض جهله بحسن استخدامه للغة، وطبيعته المرحة وبديهته الحاضرة. لذلك ترك أثراً حسناً عند كل من قابلناهم. وقد طاب له المقام فأراد أن يبقى فترة أطول، وكان كرار قد أحب مرحه وهذره فشجعه على البقاء. لكنني عاندت وقلت لهم:

ـ هذا إنسان صائع ما عنده شغل. أما أنا فلا بد أن أعود إلى عملي.

قال «منسي»:

ـ شغل إيه يا خوي؟ هو اللي انتو بتعملوه دا شغل؟

كان «منسي» يعتبر الإذاعة «شغل أونطة» وأنها مهنة لا تحتاج إلى معرفة أو جهد. لكنه كان يحبها، ولما هاجر إلى أمريكا كان من ضمن ما فعله أنه أنشأ محطة إذاعة للدعوة للإسلام. وكان يومئذٍ قد أسلم وحسن إسلامه.

تلك السعادة التي غمرته طوال وجودنا في أكسفورد، لازمته ونحن عائدون في طريقنا إلى لندن. كان يضحك ويثرثر وينط من موضوع إلى آخر ومن فكرة إلى أخرى، دون توقف ودون تسلسل أو منطق. واقعته مع «بروفيسور توينبي» بدأت تتحول في خياله تدريجياً إلى أسطورة أخرى في «مثلوجيا» حياته. قال وهو يضحك في أعماق قلبه:

ـ تصور أنا رحت كابس على الراجل وأنا مش فاهم الحكاية إيه ولا هو قال إيه.

قلت له:

- إنك بحماقتك في أكسفورد ضيعت انتصارك في لندن على «ريتشارد كروسمان». مثل نابليون... أضاع في موسكو ما كسبه في أوسترلتز.

أعجبه أنني شبهته بنابليون، فقال:
- أنا برضه زي نابليون، مش كده؟
أضحكني هذا جداً، فقال:
- بتضحك ليه؟ هو إيه يعني نابليون؟ حتة تلياني من كورسيكا.
فقلت:
- بس انت تشبه مين ولاّ مين؟ مرة علي خان، مرة نابليون، ومين كمان؟.
قال وكأنه لم يقفز إلى فكرة أخرى:
- انت عارف ان جمال عبد الناصر واد جدع بصحيح، صعيدي حمش. بس يا خسارة معاه شلّة من الجهلة، انت عارف هو محتاج لناس زي مين؟.
- زيك انت!
- أهو كده، واحد صعيدي حمش، ومتعلم، وبتاع حَلبسَّه، يلعب بالبيضة والحجر زي حضرتي...
اضحكني ذلك، كما أضحكني من قبل قوله إنه يشبه نابليون:
- انت برضك بتضحك؟ هو يعني الأوباش اللي معاه دول أحسن مني؟
- انت تعرفهم؟
- إلا أعرفهم، انت عارف الجدع دا اسمه إيه، دلوقتي بقى وزير قد الدنيا ومش عارف إيه، دا مراته كانت بتفصل هدومها عند الست

اليونانية اللي أنا كنت ساكن عندها في الإسكندرية كان بيجي وياها، اتعرفت عليه وبقينا أصحاب، كنا بنسهر كل ليلة ويا بعض.

بعد ذلك، حين عاد إلى مصر وأقام فيها فترة، زعم أنه تعرف على جمال عبد الناصر وصار أحد مستشاريه وكان يلخص له الكتب التي تصدر حديثاً باللغة الإنجليزية. وهو زعم لم نأخذه مأخذ الجد. أعدته متعمداً إلى أكسفورد. قلت له:

ـ أكسفورد حلوه مش كده؟
ـ يا سلام على أكسفورد. انت عارف اني سجلت للدكتوراه في أكسفورد؟
ـ لا يا شيخ؟
ـ الله، انت ما تعرفش الحكاية دي؟ دا أنا حتى كدت اتجوز واحدة من أكسفورد، بنت زي القمر. كانت تدرس تاريخ في كلية «سانت هيلدا».
ـ وبعدين؟
ـ بعدين إيه؟ ما انت عارف الحكاية، اتلميت على حضراتكم، ولقيت الـB.B.C، نقول لنا كلمتين فارغين ناخذ عليهم فلوس.
ـ وتزوجت ماري.
ـ آه يا سيدي.
ـ ماري سيدة فاضلة، وأنت لا تستحقها. أي واحدة غيرها كانت طلقتك من زمان.
ـ ما قلناش حاجة. ماري بنت حلال وربة بيت والكلام الفارغ دا. بس البنت بتاعة أكسفورد كانت حلوة قوي. زي القشطة.

تذكرت صاحبه من شركة «أرثر رانك» فسألته عنه. استجاب فوراً

لهذا الموضوع الجديد وكأنه كان ينتظر السؤال منذ زمن. قال وهو يضحك:

ـ الراجل الأهبل اللي انت شفته دا يشغل «منصب كبير» في الشركة ومن عائلة محترمة ومتجوز ست زي القمر.

ـ أنا افتكرته أعزب، مش باين انه في ست في البيت.

«ما هي دي الحكاية. أصله يا سيدي الأستاذ دا راح مصر. وقابل واحدة هلفوته. عيّله بتاعة اتنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين سنة. راجل مغفل. شاف بنت مصرية عيونها عسلية وشعرها أسود وملظلظة، راح متدهول في حبها. انت عارف الراجل دا سنه فوق الخمسين.

ـ وبعدين؟

ـ بعدين إيه؟ البنت مش جاده.. ضحكت عليه وأوهمته انها بتحبه ومستعدة تتجوزه

ـ انت شفتها؟

ـ إلا شفتها. ما أنا يا أستاذ حاضر القصة من بدايتها.

ثم قال وهو يضحك:

ـ أصله انت مش واخد بالك... أنا يا سيدي باشتغل معاهم مستشار في الشؤون العربية، يعني لما ييجو ينتجو فيلم زي الخرطوم أو لورانس والكلام الفارغ دا، يستشيرو مين؟

ـ أنت؟

ـ أيوه يا سيدي. أنا، انت فاكر أنا معتمد على الكلام الفارغ بتاع الـB.B.C؟

ـ وبعدين؟

ـ وبعدين زي ما بيعملوا الإنجليز الهبل. الخواجة لما رجع لإنجلترا

حكى لمراته، وطلب منها الطلاق. قال إيه؟ بيحب. دا مراته زي القمر.
ـ أوعى البنت تكون مسلمة.
ـ لا يا سيدي. اطمئن. قبطية من جماعتنا. انتو بس تعملو لي مسلمين في حكاية الجواز. وافرض انها مسلمة. ما هو الأستاذ دا مستعد يعمل أي حاجة عشان يتجوز حبيبة قلبه.
ـ والبنت؟
ـ يا شيخ! دي بتضحك عليه، لا حتتجوزه ولا حاجة.
ـ وانت دورك إيه في الحكاية دي؟
ـ تصور الراجل الأهبل دا، مرات يتصل بي الساعة اتنين صباحاً عشان يحكي لي حكاية حبه وغرامه. دا متصور اني سأقنع البنت تتجوزه.
ـ وفي نظير ذلك؟
ـ أهو كده. في نظير ذلك نلطش الدور من مين؟ من بسلامته عمر الشريف.
ـ الله يلعنك. انت حتخرب بيت الراجل.
ـ أبداً. لا حاخرب بيته ولا حاجة. بكره يرجع لمراته وتنتهي الحكاية.

انتهت الحكاية بأن الرجل من شركة «آرثر رانك» لم يطلق زوجته ولم يتزوج «البنت» وأن «منسي» لم يحصل على دور عمر الشريف ولا أي دور آخر في فيلم «لورانس». ولكن الحياة كانت تخبئ له أدواراً أخرى في الواقع.

حين وقف «منسي» ذلك الموقف «التاريخي» في ذلك المكان الذي لا يدخله الناس ضربة لازب، لعله أحس بأنه جاء بمقتضى منطق عادل، وأنه هو أيضاً يرمز لشيء ما. كان ما يزال في المرحلة الثانية من مراحل حياته، مرحلة الـ«بَيل» التي أعقبت مرحلة الـ«عجلة».

حدث ذلك أواخر الخمسينيات أو أوائل الستينيات، لا أذكر على وجه التحديد. لكنه كان حدثاً كبيراً. استضاف مجلس العموم البريطاني في لندن المؤتمر الدوري لبرلمانات العالم. جاءت الوفود من كل الأنحاء وصادف أن «منسي» رحمه الله كان على صلة حميمة برئيس الوفد المصري، منذ هو طالب في جامعة الإسكندرية. لذلك كان سهلاً عليه أن يلتئم بالوفد المصري. كان يرافقهم في مجيئهم وذهابهم، يساعدهم على شراء لوازمهم من الأسواق، ويرتب لهم مقابلاتهم، ويصطحب من يرغب منهم إلى عيادات الأطباء،

ويسهل لهم أمورهم. وقد وظف لذلك، كما يمكن أن يتخيل الإنسان، طاقته الهائلة ومعرفته الواسعة بمدينة لندن. أصبح شخصاً ضرورياً لا غنى عنه بالنسبة لهم. وقليلاً قليلاً أصبح كأنه واحد منهم.. كأنه عضو في الوفد. وقد روى «منسي» أنه تحايل على سكرتارية المؤتمر، فوضعوا اسمه في قائمة أعضاء الوفود، وصاروا يرسلون له كل أوراق المؤتمر بما في ذلك بطاقات الدعوات التي كانت تقام تكريماً لهم. أصبح «منسي» يحضر اجتماعات المؤتمر في النهار، ويحضر حفلات الاستقبال في المساء. ولم يجد أعضاء الوفد المصري غرابة في ذلك، فقد كانوا يظنونه أيضاً مندوباً عن هيئة الإذاعة البريطانية.

وجد «منسي» دوراً محترماً يليق به، فانهمك فيه بكل طاقته. وكعادته حين يتقمص دوراً، فإنه لم يكن يقف عند حد. لذلك كادت هذه الحادثة أن تنتهي بطرده من بريطانيا.

مر كل شيء بسلام، إلى أن حل ذلك المساء، حين أقامت الملكة حفل الختام للوفود في قصر بكنجهام. لبس «منسي» بدلة السهرة التي لا بد أنه استأجرها أو استعارها. ثم مضى إلى موعده المضروب في القصر. مكان أكثر سحراً وألقاً وهيبة من كل الأمكنة التي دخلها من قبل. إنني أستطيع أن أتخيل كيف دخل «منسي» قصر بكنجهام ذلك المعقل الإمبريالي، المحاط بالبروتوكولات والرموز والطقوس. لقد صحبني مرة إلى حفل استقبال أقامته سفارة من السفارات. لم يكن مدعواً بالطبع، ولكنه جاء هكذا، وكأنه يظن أنه مدعو أصلاً وبالفعل لكل الاحتفالات التي تقام لأي سبب وفي أي مكان على وجه الأرض. كأنه ضيف مستديم على مائدة الحياة! كان على الباب رجل في بذلة حمراء كأنه جنرال في الجيش، يعلن

بصوت جهير أسماء المدعوين وهم يدخلون قاعة الاستقبال، واحداً بعد الآخر. لم يعجبني ذلك،وقلت لنفسي لم الجلبة والضوضاء، فدخلت دون أن أعطيه اسمي. وما هو إلا قليل، حتى سمعت الحاجب ينادي بصوته الجهير:

«الدكتور مايكل بسطاوروس، رئيس القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية».

كان رئيس القسم العربي الحقيقي موجوداً في الحفل، فالتفت متعجباً.

نعم، إنني أستطيع أن أتخيل، كيف اقتحم «منسي» ذلك الحصن الحصين الذي لا يدخله كل من هب ودب، لا يدخله كل من شاء، هكذا، ضربة لازب. تجاوز السور الحديدي الخارجي الذي يتشبث به السياح، ينظرون من بعيد إلى مراسم تغيير الحرس، يراودهم الأمل أن يروا وجهاً يطل عليهم من نافذة أو ردهة. دخل إلى الفناء الداخلي، ولعله صعد درجاً، ثم فتحت له الأبواب، وسار به الحرس الملكي في دهاليز واسعة طويلة. كل خطوة محسوبة منذ عهد سحيق غابر. أخيراً وصل إلى... نهاية المطاف. إلى شيء مبهم كأنه سيارة الـ«رولز» بين السيارات.

وصل دون استئذان، ودون وجه حق، في ثوب مستعار وصفة منتحلة.

فتح الباب الأخير، ونادى حاجب الملكة الذي لا بد أنه لم يكن كسائر الحجاب:

«الدكتور منسي يوسف بسطاوروس، رئيس الوفد المصري».
هل تذكره وهو يقارع سير آنتوني أيدن في اجتماع شباب المحافظين؟

هل تذكره وهو يصرع تنيناً ضخماً من «تنينات» الإنجليز؟
هل تذكره في أكسفورد وهو يحارب في غير محترب، ويعارك في غير معترك؟

إنه الآن في هذا المكان، يقوم بدور أعظم من أي دور قام به من قبل، أو سيقوم به من بعد.

مثل «منسي» بثوبه المستعار وصفته المنتحلة، أمام الرمز الأكبر للأمبراطورية البريطانية.. ملكة إنجلترا واسكتلندا وإيرلنده وويلز وجزر الهبرديز وجزيرة مان وما وراء البحار، وريثة تاج الملوك جيمس وجورج وإدوارد، سليلة آل وندسور وهانوفر، راعية الكنيسة، رئيسة الكومنولث!

وماذا فعل «منسي» هل حيّا وانصرف؟ هل اكتفى بذلك القدر؟ أبداً. كانت تلك لحظة لا بد أنه ظل يستعد لها على غير علم منه منذ ولد، وكأنما الأقدار قد هيأته لذلك اللقاء «التاريخي». ولعله أيقن أنه هو أيضاً يرمز لشيء ما، وأنه لم يأت متسولاً، ولكنه يقف ذلك الموقف بمقتضى منطق، وإن بدا عجيباً، فإنه عادل على وجه من الوجوه.

١٨

كان يعلم أن رئيس الوفد الحقيقي كان مريضاً تلك الليلة، وأنه ما من أحد سوف ينوب عنه. ولعل ذلك كان حتماً، فقد كان المنطق العجيب الذ أعطى «منسي» «شرعيته» ومبررات سلوكه عن علم أو عن غير علم، يقتضي أن يلعب هو ذلك الدور، أن يكون هو الرئيس. ولم لا؟

ألم ينتزع نابليون وهو «حتة تلياني من كورسيكا» التاج ويضعه بيده على رأسه ويفرض نفسه «أمبراطوراً على فرنسا؟

ألا تغدق الحياة على أناس لا يبدو أنهم يمتازون على بقية خلق الله؟

ألا يشغل بعض الناس مساحات من الأفق أكبر مما يستحقون؟

بمقتضى هذا المنطق العجيب، وقف «منسي» في الصف الذي يؤدي إلى الملكة، بين رؤساء الوفود... الرمز الإمبريالي، الذي يعزف من أجله السلام الملكي، وتتحرك باسمه الجيوش، وتخفق الأعلام على سفن الحرب في عرض البحار.

وكان وراءه في الصف، محمد أحمد محجوب، رئيس وفد السودان. ذلك أيضاً كان عدلاً على وجه من الوجوه، أن يقف محمد أحمد محجوب بقامته المديدة، وسمته المهيب، وبيانه الناصع، وعقله الراجح، وخبرته في معترك السياسة وراء «منسي» في ثوبه المستعار وصفته المنتحلةّ!

بعد ذلك بزمن، حكينا القصة لمحمد أحمد محجوب رحمه الله. غضب أول الأمر، بوصفه زعيماً، ثم نظر إليها بوصفه شاعراً، فضحك. ولعله كان يومئذٍ أقدر على فهم «المغزى» واستبطان «الرمز» فقد كان منفياً في لندن، بعد أن انتزعت منه «ثورة مايو المظفرة» رئاسة الوزارة. لقد جاء واحداً، لا يختلف كثيراً عن «منسي» في نهاية الأمر، (دون إذن ودون وجه حق في ثوب مستعار وصفة منتحلة) فأزاحه عن مقعده وجلس هو مكانه.

كان الرؤساء يسلمون على الملكة فتقول لكل منهم بضع كلمات على سبيل المجاملة، ثم ينصرفون، ولا يأخذ اللقاء أكثر من دقيقة أو دقيقتين.

لكن «منسي» كان مختلفاً. لم يفوضه أحد. جاء بمحض إرادته، لا كمتسول، ولكن بمقتضى منطق عادل في نظره. وباسم من؟

باسم كل الذين وقفوا وراء الأسوار ينظرون من بعيد لعل وجهاً يطل عليهم من النافذة.

باسم أولئك الذين لم يجدوا مكاناً على المائدة لأن آخرين احتلوا مساحات أكبر مما يحق لهم.

يروي «منسي» رحمه الله، أن الملكة بعد أن حيته حسب ما تقتضي المراسم والأصول، فجأة قال لها، دون تفكير، ودون أن يناديها بلقب «صاحبة الجلالة» كما تقتضي الأصول:

«اسمعي. لا بد أنك تجدين هذه المناسبات مملة جداً. كيف تحتملين القيام بهذا الدور الممل يوماً بعد يوم؟».

يقول «منسي» إن الملكة ضحكت، ولكن أغلب الظن أنها ابتسمت ابتسامة خفيفة، لتخفي دهشتها من تلك الجرأة، فهي مدربة لمثل هذه المواقف.

بعد ذلك دخل معها في حديث طويل عن مهامها كملكة، وعن حياتها العائلية. وبلغت به الجرأة أنه سألها عن تربية الأمير تشارلز ولي العهد وعن تعليمه. ليس ذلك فحسب ولكنه أخذ يعطيها نصائح عن أفضل السبل لتربيته وتعليمه.

استغرقت المقابلة وقتاً طويلاً بحساب ذلك المكان. وقف الصف، وبدأ رؤساء الوفود يتعجبون من هذا الذي أعطته الملكة كل هذا الوقت. وكان محمد أحمد محجوب وراء «منسي» ينتظر دوره، بقامته المديدة، وخبرته الطويلة، وبذلته الأنيقة التي لم يستعرها،

ولكن اشتراها من حر ماله.

تحرك دوق أدنبرة، زوج الملكة الذي كان يقف إلى جانبها، وأمسك «منسي» برفق من ذراعه وخرج به من الصف. قال له: «أنت صغير السن جداً. كيف أصبحت رئيس وفد دولة كبيرة كمصر؟».

قضى «منسي» ذلك المساء كما يمكن أن يتخيل المرء. أكل وشرب وحاور وجادل وضحك، وتعرف بلورد هذا وليدي تلك، وتحدث اللغة الإنجليزية على أصولها في مكمن أسرارها وأمنع حصونها. وفي غمرة تلك السعادة أغفل أمراً مهماً، وهو أن ذلك القصر ليس مكاناً «هملاً» وأن الإنسان لا يدخل ذلك الحصن دون دعوة ودون وجه حق، مهما بدا له أنه رمز لشيء ما، أو أنه صاحب حق ما. كانت ثمة عيون تراقب وتحرس، وترى وتسمع.

ثاني يوم، مع أول الصباح، وهو لم يكد يستيقظ من نومه، حل عليه رجال أشداء من طراز لم يعرفه من قبل. رجال الأمن كانوا يعرفون عنه كل شيء منذ أن وطئت قدماه أرض جزيرتهم. كل صغيرة وكبيرة أحصوها في سجلاتهم. وعلى مدى شهر أو نحوه ضيقوا عليه الخناق، واتهموه بأنه عميل للمخابرات المصرية ـ قالوا له إنهم لا يجدون تفسيراً آخر لسلوكه المريب. العجيب أن المصريين أيضاً اتهموه بأنه عميل للمخابرات البريطانية فهم أيضاً لم يجدوا سبباً منطقياً لسلوكه.

دخل «منسي» في مأزق حقيقي، فجند كل طاقته واتصالاته ومعارفه. وأخيراً انتهى الإنجليز إلى الرأي بأنه شخص إما أحمق أو مجنون لا يدري ماذا يفعل.

إنما «منسي» رحمه الله لم يكن أحمق ولا مجنوناً. كان كما وصفته أستاذته باربرا براي «إنساناً نادراً على طريقته».

١٩

تشعب الحديث في دار سعد الدين وهبة الكاتب المرسحي الشهير، الذي كان يومئذٍ وكيلاً لوزارة الثقافة، وزوجته الممثلة الكبيرة سميحة أيوب، إلى أن جاء ذكر «منسي». بدأ سعد الدين وهبة يحكي قصة رحلة رافقه فيها «منسي» إلى الكويت، فلم أكن أنا الوحيد الذي حظي برفقته في الأسفار، إلا أنني ربما كنت أكثرهم حظاً. كان «منسي» رحمه الله يحب السفر، لذلك اقتنى شركة للسياحة تتيح له ركوب الطائرات والنزول في الفنادق بأسعار مخفضة. وكان يحب الصحبة ويحب الضحك. فإذا وجد رفيقاً تطيب له صحبته مسافراً إلى أي مكان، سافر معه. كان يحب صلاح جاهين بطريقة مؤثرة، فإذا خطر على باله في واشنطن، يسافر فوراً إلى القاهرة لرؤياه. وإذا تذكر عبد الرحيم الرفاعي، سافر إلى «بيرن» وإذا عنَّت له باربرا براي في باريس، سافر إلى باريس. كان يبدو إنساناً حراً تماماً، طليقاً مثل طائر في الفضاء.

لم يذهب سعد الدين وهبة بعيداً في رواية القصة حتى دق جرس الباب. ثم إذا صاحبنا حقيقة ماثلاً للعيان. كأن أحداً ناداه فاستجاب. صدفة، نعم، ولكنها صدفة تكررت كثيراً. يأتي ذكره، ولا أحد يظنه في المدينة، فإذا الباب يدق أو التلفون يرن.

دخل ضاحكاً وكأنه كان معنا منذ أول المساء.
«منسي! الله يخرب بيتك. انت جايي منين؟».

هجموا عليه بالعناق والقبل والشتائم، وخاصة الشتائم، فقد كان فيه شيء يغري بالشتم، ولكن عن محبة.

تهلل وجهه طرباً لحرارة الاستقبال وكثرة السباب، والأثر المسرحي الهائل الذي أحدثه بدخوله إلى دار أعلم بأصول المسرح الحقيقي منه... تناوشه الناس ذات اليمين وذات اليسار، وكانوا كلهم يعرفونه ويحبونه بدرجات متفاوتة، يوسف إدريس ومحمود سالم ورجاء النقاش وعبد المنعم سليم وآخرون.

اندرج حالاً في الحديث وكأنه شارك فيه منذ البداية، وطابت له الأمسية كما تطيب الأماسي في القاهرة، ووجد جمهوراً ليس كسائر الجماهير، أناساً أصحاب مواهب وأخوة سمر وفكاهة وطرائف. ولبس زي المهرج فأصبح محور الانتباه ومركز الدائرة.

مضى سعد الدين وهبة يحكي القصة، وكان «البطل» يتدخل باستمرار ويجاذبه حبل الرواية ليسير بها على هواه. وكنت أستمع لاهياً وأنا لا أعلم أنني سوف أكون وشيكاً ممثلاً في فصل تعيس من فصولها في بيروت.

كان يحب الغموض، يظهر فجأة ويختفي فجأة. «يا واد انت جايي من أي داهية؟».

يقول «منسي»:
«وعاوزين تعرفوا ليه؟».
يقول يوسف إدريس الذي كان مأخوذاً بشخصيته من زمن:
«الواد دا لازم بيشتغل في السي. آي. أيه. طب ازاي عرفت اننا سهرانين هنا؟».

يضحك «منسي» فقد كان يحب أن يضفي على نفسه مزيداً من السحر والغموض.
ويقول أحدهم:
«هي السي أي أيه مغفلة تشغل واحد عبيط زي دا؟ دا كل حياته هزار وضحك وما يعرفش يخبي أي أسرار».
ويقول الثاني:
«ما هو دا كله تمثيل للتمويه».

لكن الحقيقة كانت أبسط من ذلك. لقد وصل «منسي» من أمريكا منذ أسبوعين، كما أخبرني فيما بعد، بعيداً عن التمثيل والتهريج، وزار أهله في القاهرة والصعيد، فقد كان طول حياته باراً بأهله، وتفقد أحوال أخواته وأخوته. ثم انقطع أياماً بصحبة صديقه الحميم صلاح جاهين قبل أن يظهر في تلك الليلة.

كان قد مضى على هجرته إلى أمريكا أكثر من خمسة عشر عاماً.
أيام كنا معاً في لندن، كنت أقول له:
«سافر إلى أمريكا. إنها بلاد ينفع فيها النصب. إما دخلت السجن

أو أصبحت مليونيراً».

لكنه لم يأخذ قولي مأخذ الجد، فقد كان سعيداً بحياته في إنجلترا. ثم ذات يوم، سافر على طريقته، دون خطة أو تفكير مسبق، في رحلة من الرحلات التي كانت تنظمها هيئة الإذاعة البريطانية إلى نيويورك. يدفع الإنسان مبلغاً زهيداً يغطي ثمن تذكرة الطائرة ونفقة الإقامة في مدينة نيويورك مدة أسبوع.

سافر وليس في نيته الإقامة، فلم يكن يحمل مالاً أو متاعاً، ولم تكن تأشيرة الدخول تسمح له بالإقامة. ولكن الناس عادوا ولم يعد. وسألنا رفقاءه في السفر فقالوا إنه اختفى منذ وصلوا نيويورك ولا يعلمون أين ذهب.

٢٠

كان يجب عليّ أن أنتبه، ونحن في مطار القاهرة نستعد للسفر، وأنا ألمح «منسي» يجري من مكان إلى مكان، يهمس في أذن موظف شركة الطيران، ويوشوش لموظف الجمارك، ويلاطف موظف الجوازات. قلت هذه طبيعة «منسي»، يحول أي أمر، مهما كان عادياً وبسيطاً إلى شيء يشبه المؤامرة. حتى وأنا أصعد سلّم الطائرة، رأيته يهمس لموظف شركة الطيران، فلم أكترث. دخل مسروراً وكأنه أحرز نصراً من نوع ما.

وصلنا مطار بيروت أوائل المساء في ذلك اليوم من عام ١٩٧٥ الذي أصبح يؤرخ به فيما بعد على أنه البداية الحقيقية للحرب اللبنانية، الحرب التي لم تضع أوزارها إلى اليوم. وكان وصولنا قريباً من المهزلة، في جو متوتر، على غير علم منا، في مساء كان بداية لليل طويل حالك، يخفي في جوفه كوارث يشيب لهولها الولدان.

في دار سعد الدين وهبة، وكان المساء مساء من نوع آخر كما وصفت لكم قبلاً، سألني «منسي» عن وجهتي، قلت له إنني عائد إلى عملي في الدوحة، ولكنني سوف أعرج على بيروت لأقضي فيها أياماً. كنت قد حضرت اجتماع اللجنة الدائمة للإعلام، في مقر الجامعة العربية. ناقشنا مواضيع أصبحت بنوداً ثابتة في كل اجتماعات لجان الإعلام ومؤتمرات وزراء الإعلام إلى يومنا هذا... التحرك الإعلامي العربي في الخارج، صورة العرب المشوهة في أجهزة الإعلام الغربية، إنشاء وكالة أنباء عربية موحدة، إقرار ميثاق شرف إعلامي، إيقاف الحملات الإعلامية التي تشنها الدول العربية بعضها ضد بعض، إلى غير ذلك. كانت لجنة محترمة من رجال أفاضل. سعدون الجاسم وعلي شمو وغالب أبو الفرج وإبراهيم الصلحي وعبد العزيز الرواس، ومرسي سعد الدين، وعبد الله الحوراني وجمعة الفزاني والشيخ عيسى بن سلمان، وطه يس، وأديب نمنم وآخرون لا يقلون عن هؤلاء الذين ذكرت فضلاً وحكمة. كانوا جميعاً رجالاً عقلاء، أخوة أشقاء. كانت تلك الأيام تتطلب قدراً كبيراً من العقل والحكمة. الآن، الله أعلم.

كنا نقول «لنضع نصب أعيننا الأهداف الثابتة للأمة العربية ولا ننشغل بالمتغيرات التي تأتي وتزول» وكنا نحاول أن نجد أرضاً صلبة نقف عليها وسط عالم من رمال متحركة. وكانت تلك اللجنة، حسب علمي، أول من استعمل عبارة «الحد الأدنى من الإجماع العربي» وهي عبارة اكتسبت أعماقاً وأبعاداً فيما بعد، حين رددت في مجالس أثقل وزناً وأكثر احتراماً. ومن محاسن الصدف أن أغلب أعضاء اللجنة ظلوا ثابتين على مدى أربعة أو خمسة أعوام، فنشأت بينهم ألفة شخصية وتقارب في الرأي. حتى أخونا جمعة الفزاني أصبح بمرور الوقت ينظر إلى الأمور نظرة «واقعية مهنية» كما

كنا نقول.

هذا ورئيسنا الحليم، الدكتور عبد الأحد جمال الدين، يدفع بالتي هي أحسن، يخمد الثورات ويطفئ النيران، وإذا تعقدت الأمور يسعفه طبعه المصري فيقول شيئاً يضحك الناس، فيضحكون ويستريحون، وكان يجلس إلى يمينه على المنصة، الأستاذ سليم اليافي مساعد الأمين العام، يستمع في صمت، ويعاني في صبر، ويدخن بلا توقف.

كان الأمين العام مريضاً في المستشفى، فذهبنا نعوده. أحسن استقبالنا وتلطف معنا في الحديث. ثم جاء ذكر الإعلام وقضاياه قال:

«إعلام إيه؟ أنا عاوز أعمل تنمية».
فقال له أحدنا:
«لكن سيادتك... ما هو برضه الإعلام داخل في التنمية».
كان آخر اجتماع تعقده اللجنة الدائمة للإعلام في القاهرة. بعد ذلك حدثت أحداث، وتفرق الناس شذر مدر، وذهبوا أيدي سبأ.
قال لي «منسي»:

«والله فكرة عظيمة نروح بيروت. أنا أصلاً مسافر إلى الرياض. نقضي أياماً في بيروت. بعدها أنت تسافر إلى الدوحة، وأنا أواصل السير إلى الرياض».

ساعة واحدة توصلك من القاهرة إلى بيروت. مثل المسافة من القاهرة إلى أسوان. ودمشق أقرب إلى القاهرة من أسوان. تخيل.

حلقت الطائرة فوق سماء بيروت أول المساء. الجبال والسماء والبحر حقاً كما وصفها الشعراء وتغنى بها وديع الصافي وفيروز. السلام والمحبة والعطاء كل ذلك حقاً لبنان. كل شيء معدّ إعداداً جميلاً للخراب، لقد بذل مئات الآلاف من الرجال والنساء جهداً مضنياً على مدى عشرات السنين ليصنعوا بلداً مثل عروس خضلة تزف للموت.

لكننا في ذلك المساء من عام ٧٥، لم نكن نعلم.

٢١

السماء فوق بيروت رحيمة قريبة المنال، نجومها عقود من اللؤلؤ تختلط بقناديل الكهرباء التي تتوهج على سفوح الجبال. وعلى اليسار، والطائرة تقترب من أرض المطار، بحر ناعم شفاف أول الليل، أمواجه، كما قال الشاعر، مثل عرائس في غلائل بيض، تتراكض نحو الشاطئ، وتذوب. بعد قليل سوف تمطر هذه السماء الرحيمة شواظاً من لهب، وهذه الجبال المضيئة سوف تهتز بهدير المدافع، وهذا البحر الآمن المطمئن، سوف يدفع إلى الشاطئ بشياطين الدمار والهلاك.

لكننا لم نكن نعلم أن كل ذلك سوف يحدث وشيكاً، ونحن ندخل صالة المسافرين القادمين، ونمضي لنتسلم أمتعتنا.

فجأة انتبهت وكأنني أستيقظ من حلم. قلت لـ«منسي» مذعوراً:

«الله يخرب بيتك. إيه دا؟».
قال متضاحكاً:
«شوية هدايا».
«أي هدايا؟ دي لازم بضائع مهربة».

كان أخوة من السفارة القطرية قد جاءوا لاستقبالي، ودخلوا حظيرة الجمارك، فوقفوا ينظرون متعجبين.

حمل الشيّالون صندوقين ضخمين، كل منهما يزن أطناناً، ولما أصر موظف الجمارك أن يرى ما بداخلهما، قال «منسي»:

«حتتعب نفسك على إيه؟ دي حاجات بسيطة. شوية هدايا».
ثم أضاف، غير مبالٍ بوجود القطريين:

«وكمان أنا موظف في دولة قطر وعضو في وفد رسمي».

نظر إليّ الأخوة من السفارة القطرية وفي عيونهم دهشة وتساؤل، وكنت أنا أكثر دهشة منهم. لقد عرفت ضروباً من جرأة «منسي» من قبل، ولكنني لم أتخيل أن تبلغ به الجرأة أن يزعم أنه يعمل في دولة أعضاء سفارتها حاضرون، ينظرون ويسمعون. وكما كان يحدث لي طوال صحبتي له، فقد اختلط الغضب والحرج لدي، باهتمام عقلي بحت، كأنني أرى عملاً فنياً طريفاً يتكشف أمامي، وأريد أن أتابعه إلى نهايته، وأرى إلى أين يصل. وفجأة تحول ذلك المكان في المطار إلى مسرح، وتحولنا نحن جميعاً، أعضاء السفارة القطرية وضابط الجمارك وعدداً من الناس وقفوا يتابعون ما يجري وأنا، إلى ممثلين ثانويين في مهزلة بطلها «منسي».

أصر الموظف على فتح الصندوقين، فقد كان منظرهما يبعث على الشك، خاصة في تلك الأجواء المتوترة، كما اتضح لنا فيما بعد. لعل فيهما سلاحاً. لعل فيهما مخدرات. لعل فيهما مصائب أخرى. من يدري؟ ولما رفع عن كل صندوق غطاؤه، نظرنا فإذا هما مملوءان بثياب نسائية داخلية، من جميع الأشكال والألوان. أخذ الضابط يخرجها، ومع كل رزمة تخرج، أحس بنفسي أزداد غضباً وحرجاً ودهشة. وكان «منسي» أثناء ذلك كله يردد متضاحكاً:

«حاجات بسيطة. شوية هدايا».

الآن أتذكر القصة التي حكاها لنا سعد الدين وهبة في بيته في القاهرة وأفهم سر سلوك «منسي» المريب في المطار وهو يجري من مكان إلى مكان، يهمس في أذن هذا ويوشوش لذاك:

أعيدت الأشياء ورد على كل صندوق غطاؤه. أطرق الضابط زمناً وكأنه فقد القدرة على التفكير وفقد القدرة على الكلام. ورغم أنه لا بد أن يكون قد رأى أعاجيب كثيرة من موقعه ذاك، وكأنه لم ير شيئاً مثل ذلك من قبل. وأخيراً رفع رأسه ونظر إلى الأخوة القطريين وقال بصوت هادئ لا تدري إن كان وراءه غضب أم عجب:

«الأستاذ هيدا من جماعتكم»؟
تمنيت وأنا في حالتي تلك لو قالوا «لا» ولكن أحدهم سارع وقال «نعم».
ولما خرجنا من المطار، قلت لـ«منسي»:
«اسمع. من هنا كل واحد يروح في طريق. والله لا تصاحبني. لا تنزل معي في هوتيل، ولا تعرفني ولا أعرفك».

٢٢

أنزلني الأخوة القطريون في فندق الـ «هوليدي إن» الذي أحرقته الحرب فيما بعد، كما أحرقت كل الفنادق الكبيرة في تلك المنطقة . «الفينيسيا» و«الكازار» و«السان جورج». كان قد أنشئ حديثاً يومذاك. كانت حركة التعمير في بيروت لا تنقطع، تغيب عنها شهراً ثم تعود فإذا هوتيلات وعمارات... كأن أطفالاً شيّدوا قصوراً من الرمال على شاطئ البحر، ثم سئموا، فقوضوها في لحظات.

إنني أعرف جيداً تلك المنطقة بين «الزيتونة» و«عين المريسة». حين كنت أعمل مع هيئة الإذاعة البريطانية، كنت أنتدب للعمل في مكتبهم في بيروت، في «نزلة الداعوق» في شارع فينيسيا الذي ينحدر إلى البحر عند فندق الـ«سان جورج». كان حسن المليجي، ملك عين المريسة، ومحمود نصير رحمة الله، ملك الزيتونة. مصريان نزحا إلى بيروت واستقرا فيها، وكانا ينتجان البرامج لهيئة

الإذاعة البريطانية، وكانت لهما «شنة ورنة» تلك الأيام، وحسن المليجي خاصة حياته أسطورة أكثر عجباً من أسطورة «منسي». تعرفت على بيروت من خلالهما ومن خلال صلاح أحمد الذي كان ملحقاً صحافياً في سفارة السودان.

أقمت معه أول مرة قدمت إلى بيروت، عام ٥٨، في الطابق الثاني عشر في عمارة منقارة، على أطراف الحمراء. أذكر ذلك الصباح جيداً. نظرت إلى المدينة تتأرجح بين الجبل والبحر، تحت ضوء الصباح الحاد الوقع على العين، بعد ضوء لندن الشاحب وسمائها الغائمة. زرقة البحر تمتزج بزرقة السماء تمتزج بأشعة الشمس المنعكسة من سطوح البيوت والعمارات، تمتزج بالخضرة على سفوح الجبال، فكأنك تنظر إلى مدينة وهمية ليست ثابتة تماماً في الزمان والمكان. خليج جونية كأنه على مرمى حجر، وتلك ولا بد، قمة «بسكنتا» حيث اعتكف ميخائيل نعيمة. لقد شددت إليه الرحال فيما بعد. ولعلك إذا دققت النظر ترى قبرص. أنت هنا في مفترق طرق وملتقى حضارات. هذه بلاد «ليديا» و«قديجيا» وبلاد الشام. إلى الغرب «يوروبا» وإلى الجنوب «أفريكا بروفنسيا» وأفريقيا وادي النيل. وإلى الشرق «أرابيا بتريا» و«أرابيا دسيرتا» ديار قحطان وعدنان. ووراء ذلك «مسوبتاميا» أرض بابل وأشور ما بين النهرين. ثم جاءت النصرانية وجاء الإسلام الحنيف بلسان عربي مبين، وقامت أشياء فوق أشياء.

جاءني «منسي» وقت الضحى، سعيداً مبتسماً وكأن شيئاً لم يحدث، وكنت والحق يقال، قد هدأت ثائرتي، وبدت لي حكاية «منسي» في المطار، هينة بالقياس إلى نذر الشر المحتمل. أول ما دخلت الهوتيل في الليلة الماضية، أحسست بنذر الشر، ولاحظت

وجود شبان كثيرين يحملون السلاح وينظرون نظرات شرسة للداخلين والخارجين. ثم جاءني أحمد سعيد محمدية صاحب «دار العودة» فأكد لي أن البلد مقبل على انفجار خطير. أما «منسي» فلم يبد عليه أنه أحس بشيء من ذاك. قال:

«تعرف أنا نزلت في هوتيل لوكس في شارع الحمراء. أصحابه شبان أرمن. أدوني جناح كامل بسعر أرخص من السعر اللي أنت بتدفعه في غرفة هنا... أنت إيه اللي نزلك في الكلام الفارغ دا؟».

قلت له:
«إنت ليك أصحاب في بيروت؟».
«أوه كتير. دول أصحابي من زمان. دايماً أنزل عندهم. شبان زي السكر».

ثم أضاف:
«يا خوي إيه العباطة بتاعتك دي؟ عملت انك زعلان والكلام الفارغ دا. تعرف انك ضيعت على نفسك سهرة حلوة جداً».

كان «منسي» يعطش (الجيم) ولا ينطقها على الطريقة المصرية، ولا يقول (أوي) ولكن يقول (قوي) بلهجة أهل الصعيد.

قال:
«يالا بينا وبلاش الكلام الفارغ دا. أنا حجزت لك جناح زي اللي عندي... حيعجبك الهوتيل... دول شبان زي الحلاوة... نقضي أيام جميلة جداً».

قلت له إنني قررت السفر في ذلك اليوم لأن الحالة متوترة وسوف تحصل مصائب كثيرة.

«يا شيخ بلاش كلام فارغ. البلد عال ومش حتحصل أي حاجة... خليك كمان تلات أيام».

ثم سألته عن الصناديق:
«البلاوي الجبتها من القاهرة عملت فيها إيه؟».
قال ضاحكاً:
«بعتها».
«بعتها؟ مش قلت إنها هدايا؟».
«انت صدقت انها هدايا؟ وحاهدي هدوم نسوان لمين بس؟».

«لعنك الله. الأخوان من السفارة القطرية حيفتكروا إني باشتغل معاك في التهريب».

أسعده جداً أنه أدخلني في ورطة. قلت له:
«دي الصناديق اللي حكى لنا عنها سعد الدين. مش كده؟».
«آه. حاولت أدخلها ما عرفتش».
«ورجعت بيها للقاهرة؟».

«وسبتها في المطار سنة كاملة. ولما لقيتك مسافر لبيروت... وحضرتك قال إيه؟ موظف محترم في دولة قطر، وجايي في مهمة رسمية، قلت والله دي فرصة».

«وعملت انك موظف في حكومة قطر وانك عضو في وفد رسمي».

قال «منسي» وهو يضحك بطريقته العجيبة، كما يفعل حين يظن

أنه نجح في عملية نصب بارعة:

«يا محترم، انت مش واخد بالك. وانا شحنت «البضاعة» من القاهرة إلى بيروت على اسم حضرتك».
«يعني إيه على اسم حضرتي؟».

«يعني يا محترم اني فهمت كل المسؤولين في مطار القاهرة انها بتاعتك... أمال أنت شايفني أجري من هنا لهنا فاكرني بعمل إيه؟».

رغم كل شيء، فإنني لم أملك إلا أن أضحك. قلت له:
«واشمعنى كلها هدوم نسوان؟ وكمان ملابس داخلية...
الله يلعنك. لا بد أنك نصبت على واحد».

«أصل الحكاية أن تاجر يهودي في واشنطن أفلس. كان بيصفي بضاعته. اشتريتها منه تقريباً ببلاش. ما عرفتش أدخلها لا في مصر ولا في الكويت ولا في بيروت. كانوا بيطلبوا جمارك أكتر من تمنها. ولما عترت عليك قلت والله فرجت».

«كسبت فيها كثير؟».
«دول فرحوا بيها قوي... شبان زي الحلاوة... أدوني فيها سعر محترم.. انت عارف انها أصناف غالية... حرير وحاجات حلوة جداً».

قلت له:
«مش انت بتقول إنك رجل ثري وعندك مدرسة لتعليم اللغات

ومطعم وشركة سياحية وبيت في أرقى حي في واشنطن؟».
«انت بتقول حي محترم؟ انت عارف مين جارنا؟ روبرت كندي.
دا عيالي بيلعبو مع عياله كل يوم».

«طيب. ما دمت من الأكابر وعيالك أصحاب عيال روبرت كندي، مش عيب عليك تتصرف كأنك شحات؟».

ضحك طويلاً، وضحك بسعادة حقيقية، فقد كان ذلك هو القصد. لقد قام بعمل «وجودي» طريف وجريء، عمل ليس له أي مبرر أو معنى، إلا أنه سوف يصبح أسطورة أخرى في «مثلوجيا» حياته.

تركته في بيروت وأنا مطمئن أنه سوف يدبر أموره بشكل من الأشكال. ولما ارتفعت طائرة خطوط طيران الشرق الأوسط الباسلة في الجو، كانت السماء صافية لا يشوبها غيم، وكان البحر مثل حلم بديع لن ينتهي، وكانت تلك المدينة الرائعة، بكل ما احتوته من أشياء ثمينة وجميلة ونبيلة، تلمع أسقف بيوتها تحت شمس البحر الأبيض المتوسط، تنتظر الزلزال.

٢٣

تركت «منسي» في بيروت يدبر أمره بوجه من الوجوه، في ذلك اليوم من عام خمسة وسبعين، حين بدأت الحرب في ديار لبنان. ولعل وجوده هناك، في ذلك اليوم بالذات، لم يكن بعيداً عن واقع الحال. ألم تكن حياته سلسلة من أعمال «عبثية» تحدث ارتجالاً، بلا معنى ولا مبرر؟ إلا أنها كانت تنتهي نهايات سعيدة، ولا تدوم طويلاً. وهذه الحرب ما معناها؟ لقد طال أمدها وتنوعت مصائبها، وصدق فيها قول زهير:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر إذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثقالها
وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم
كأحمد عاد ثم ترضع فتفطم

تبصر يا رعاك الله. أليست هذه الأبيات وبقية أبيات القصيدة، وقد قيلت منذ نحو ثلاثة عشر قرناً، أصدق ما قيل بالعربية في وصف الحرب إلى يومنا هذا؟ ورغم أن الإنسان يعجب بعبقرية الشاعر الذي اختصر كل هذه الأزمنة، إلا أنه أيضاً يحس بالحزن، أن الأمور لم تعتدل منذ أيام عبس وذبيان، رغم كل ما حدث من أحداث، وما جدّ من أفكار، وما أريق من دماء، وما سكب من دموع.

لِمَ لا يتبادر إلى الذهن أن اللبنانيين وحدهم مشعلو حروب، فنحن في السودان، على سبيل المثال لا الحصر، عندنا حرب تدور رحاها منذ أكثر من ثلاثين عاماً، لا تقف حتى تبدأ من جديد، أتت على الأخضر واليابس، وأهلكت الزرع والضرع، وأفنت الشيخ والطفل الرضيع. ولا أحد يدري لماذا بدأت وكيف تنتهي، وفيها من البشاعات والحماقات والأكاذيب، ما في حرب لبنان. وإذا كان في لبنان «غلمان شؤم» كما قال زهير، فغلمان الشؤم عندنا كثيرون. إلا أنني الآن، أتحدث عن بيروت، والشيء بالشيء يذكر، وبيروت عزيزة عليّ مثل الخرطوم، وحزني على مآسي السودان، ليس أكثر من حزني على مآسي لبنان.

وما لي لا أفعل؟ لقد عرفتهم أيام صفوهم فوجدتهم أصفياء كرماء أوفياء. وظلوا صامدين يتحملون في صبر طوال هذه السنوات التعيسة، مستشفياتهم تستقبل الضحايا تحت وابل القنابل، وطائراتهم تجوب الآفاق، ما إن يكف الضرب حتى يفتح المطار وتصعد

الطائرات وتهبط، وصحفهم تطلع في أوانها، ومكتباتهم ملأى بالكتب، ومطابعهم تعمل بكفاءة ومصانعهم تنتج. ما إن تصمت المدافع حتى تفتح المحلات التجارية، ويخرج الناس إلى الشوارع، بين ركام العمارات المهدمة، يتحدّون بنوازع الخير والحياة الكامنة في طبعهم، قوى الشر والموت. هؤلاء هم أهل لبنان «العاديون» وهم الأكثرية، وقد حركت الحرب فيهم، عواطف التراحم والتضحية والنبل، بقدر ما ساقت من بشاعات، ولولاهم لما بقي شيء يتقاتل عليه الزعماء. كذلك في السودان، لولا طيبة الناس «العاديين» وإنسانيتهم وحكمتهم، لتمزق السودان مزقاً مثل ثوب قديم مهلهل، ولقضت حماقات الزعماء على البقية الباقية منه إلى غير رجعة.

لذلك لم أنقطع عن بيروت، أزورها كل عام أو عامين أو ثلاثة، طوال سنوات الحرب، مثل الشعراء الأوائل، كل واحد منهم مشدود إلى طلل. وفي كل مرة أجد شيئاً قد تحطم... مطعماً ألفته، أو مقهى جلست فيه إلى ناس أعزاء، أو فندقاً نزلت فيه... كل ذلك الحي، بكل تلك الذكريات، قد احترق. مكتب الـB.B.C، الذي كان ملتقى الأدباء والشعراء والصحافيين والأكاديميين ورجال الدين ورجال السياسة... ودار حسن المليجي التي كانت منتدى عامراً، وشرفة دار محمود نصير «ملك الزيتونة»، حيث جلسنا ليالي نشرف من على المدينة، وننظر إلى البحر، ونراقب الطائرات تمر أمامنا رائحة غادية... دار «شعر» على الجانب الآخر لشارع فينيسيا قبالة مكتب الـB.B.C. كنت حين أمل العمل، أذهب إلى يوسف الخال أقضي معه الساعة والساعتين. كان إنساناً رائعاً وسواء اتفقت معه أو اختلفت، فإنك لم تكن تملك إلا أن تحبه. ولم تكن أفكاره التي أثارت بعض الناس ضده، من قبيل الشعوبية والتعصب، ولكنها كانت من نتاج قريحته المتوقدة، وطبيعته المغرمة بالابتكار والإثارة...

كل ذلك، وأكثر منه قد احترق.

أول ما نشر لي نشر في بيروت، وأول ما عرفت عرفت في بيروت. وقد رأيت جبالاً وثلوجاً وبحاراً ومدناً أكبر وعوالم أرحب، لكن هذه المدينة كأن بيني وبينها وشائج من عهد غابر. ومثلي كثيرون. هذه مدينة تعيش في قلوب ناس كثيرين. لقد بكت عليها غادة السمان، خنساء هذا العصر، فأحسنت البكاء. ورثاها بلند الحيدري فأحسن الرثاء. ورثاها نزار قباني وسمير عطا الله ومحمد الفيتوري وأدونيس ومحمود درويش وآخرون. وكتبت عنها خالدة سعيد مقالات مدهشة في مجلة «المجلة». ولا بد أن ما هدمه الحقد، سوف تبنيه «المحبة» من جديد. كل هذا الحب لا يمكن أن يذهب سدى.

وبعد... لعل ذلك البصيص من الضوء يبشر بمطلع الفجر. ها قد هيأ الله سبحانه وتعالى، رجالاً أولي عزم ومروءة وأريحية، مثل الحارث بن عوف وهرم بن سنان، يحملون ديات القتلى، ويضمدون الجراح، ويجففون الدموع من عيون الثواكل والأيتام. ولعل بركات تلك البقعة المباركة قد حلت على الرجال المجتمعين في «الطائف» فحننت القلوب وثابت العقول. وعسى أن يجيء شاعر عبقري مثل زهير، يوفي هذه الحرب حقها من الهجاء والرثاء، ويوفي أولئك النفر الكرام حقهم من الثناء. من قال إن المديح مبتذل في الشعر؟ ثمة أعمال أريحية، تقتضي شعراً أريحياً. وقبلاً قال المتنبي العظيم:

شاعر المجد صنوه شاعر اللفظ

كلانا رب المعاني الدقاق

٢٤

وصلت «سيدني» ليلاً، وكانت من الجو مثل أغلب المدن، مساحات من الضوء تتسع أو تضيق. هذه على هضبة، وهذه في واد، وهذه على ضفة نهر، وهذه على شاطئ بحر. مدن تبدو لي حين تجيئها ليلاً، كأنها معلقة بين السماء والأرض، بين الظلام والظلام، شيء يبعث على الأسى. الإنسان، هذا المخلوق القوي الضعيف، الغني الفقير، يبذل جهداً يائساً ليؤكد ذاته وسط وحشة الكون. وذلكم إحساس ظل يلح على شيخنا الجليل، أبي العلاء.

عوى في ظلام الليل عاف لعله
يجاب وأنى والديار عوافي
صوافن خيل عند باب مملك
جمعن وما أيامه بصوافي

ها هنا مساحة شاسعة من الضوء على شاطئ بحر. كنت قد تركت

«الدوحة» في عز الصيف، ونسيت أن الصيف في الدوحة شتاء في سيدني، وفي عز الصيف، من يذكر الشتاء؟ لذلك لم آخذ للبرد عدته. فوصلت في شتاء زمهرير. وأيضاً شعرت بالوحشة، رغم أنني أخو سفر، عاشق ترحال. كأنني شعرت أنني ابتعدت جداً هذه المرة عن العالم الذي ألفته. والشرق غرب والجنوب شمال، ولا بد من إحداث قفزة كبيرة في بيداء الخيال. أوه، وأين وادي هور ووادي الخزامى ووادي العقيق من هذه الأصقاع؟ ولم أكن أعرف أحداً. ولم يستقبلني أحد في المطار، ومع ذلك سمح لي مسؤول الجوازات بالدخول في أقل من دقيقة. لا أذكر أنه قلب صفحات الجواز، أو تأكد من وجود الـ«فيزا». فقط نظر إلى الجواز ونظر إليّ ثم تمنى لي إقامة سعيدة. وقد عجبت لذلك، نظراً لما حدث من سفارتهم في دلهي، ولولا سعة حيلة «منسي» لعلني لم أكن لأجيء هنا أصلاً.

قلت أذهب إلى الـ«هلتون» فلم أكن قد حجزت مسبقاً، فهذه الفنادق التي أقامها مستر هلتون كصرح «حضاري» يخلد ذكراه، هي هي أينما حللت. السعر يزيد قليلاً أو ينقص قليلاً، والغرفة تكبر قليلاً أو تصغر قليلاً، وبوسعك أن تدخلها وأنت مغمض العينين، فتعرف أين الحمام، وأين خزانة الثياب، وأين السرير. وقد جمع مستر هلتون، كما يفعل الأمريكان، بين الدنيا والدين، فوضع في كل غرفة من غرف فنادقه المنتشرة في كل أنحاء العالم، إنجيلاً، فضمن بذلك، كما ظن، ملايين الدنيا وثواب الآخرة. الحمد لله، بدأت تجد الآن في بعض فنادق المسلمين، مصحفاً شريفاً، وسهماً يدلك أين القبلة.

سألني موظف الاستقبال هل عندي حجز، فقلت له دون تفكير «نعم». نظر فوجد اسمي، يا للعجب، وقال:

«نعم. يوجد حجز باسمك. أنت موظف في الشركة العالمية للسياحة، أليس كذلك؟».

لا حول ولا قوة إلا بالله. إذاً «منسي» في المدينة.

كنت قد ضقت به ذرعاً في «دلهي» كما كان يحدث أحياناً، ونحن نضيق ذرعاً حتى بمن نحب، وكان يريد أن نسافر إلى «سيدني» عن طريق «بومباي»، وكنت أنا قد عزمت أن أذهب عن طريق «بانجكوك» وهو الطريق الأقصر، فافترقنا، سافر هو في طريق وأنا في طريق، وقلت لعل الطرق تذهب به وجهة أخرى، وأتفرغ أنا للمهمة التي كلفتني بها دولة قطر، دون أن أشغل نفسي بعبث «منسي» وابتكاراته. لكنني الآن سعيد أنه موجود في «سيدني»، إن لك صديقاً في تلك المدينة الغريبة في ذلك العالم البعيد. واتضح لي فيما بعد، أن وجوده كان خيراً وبركة، فقد كان لي نعم الرفيق وأيضاً نعم المعين. ومع ذلك فقد استكثرت أن أكون عاملاً في شركة «منسي» العالمية للسياحة. قلت لموظف الاستقبال:

«أنا في الواقع أعمل في حكومة قطر وليس في الشركة العالمية للسياحة».

قال الموظف «آه»، ولم أفهم إلا فيما بعد، لماذا قال «آه» بتلك الطريقة. جاءني «منسي» بعد منتصف النهار، بعد أن نمت وصحوت على مهل، وكان رغم كل شيء، إنساناً مهذباً، لا يثقل عليك، إلا أحياناً، وإذا شعر أنك تريد أن تخلو إلى نفسك يتركك وشأنك. قال، أول ما فتحت له الباب، دون تحية، كأننا لم نفترق

في «دلهي»:

«إيه يا خوي العباطة بتاعتك دي؟»
«إيه؟».

«إيه حكاية انك موظف في حكومة قطر دي؟ وانا قايل لهم انك موظف في الشركة بتاعتنا».
«طيب ما هي دي الحقيقة».

«أنت عارف بالهباله بتاعتك ضيعت على نفسك قد إيه؟ خمسين في المابة. إحنا كشركة سياحية بناخذ خصم خمسين في المائة في الهوتيلات».

«يا أخي أنا موفد من دولة في مهمة رسمية. يعني عاوزني اجي آخر الدنيا وعشان أوفر شوية دولارات أكذب على الناس؟ وكمان أكون موظف مع مين؟ مع شركة سياحة فالصو ما حد سمع بيها».

«طيب يا سيدي. خليك زي ما انت. حتفضل طول عمرك مغفل. عامل انك ما تكذبش والكلام الفارغ دا. آه. ولا قول لي.. انت لازم معاك فلوس كتير.. أنا نسيت انك بتشتغل مع الجماعة بتوع البترول».

لسوء حظي، كما اكتشفت بعد ذلك، أن «منسي» ظن بالفعل أنني أحمل مالاً كثيراً، لأنني أعمل في دولة بترولية، فكان يستضيف الناس في الهوتيل، ويوقع الفواتير على رقم غرفتي، هذه الألاعيب الصغيرة كانت تسعده جداً. أيام كنا معاً في لندن، كان يدخل

كافيتريا الـ بي بي سي (B. B. C) ويأخذ ما يشاء من أطعمة، ثم يذهب ويجلس دون أن يدفع. يفعل ذلك ليس خلسة ولكن عياناً بياناً، كأنه حق من حقوقه. ولما عاد من أمريكا واستقر في «عزبته» في جنوب إنجلترا، قضينا معه «ويك إند» أنا وعائلتي، فاحتفى بنا، كعادته، ولم يأل جهداً في إكرامنا. ولما أوصلنا إلى محطة السكة الحديد لنعود إلى لندن، لاحظت أنه أخذ يمازح الحارس على الباب، ثم غافله وتسلل دون أن يدفع ثمن تذكرة الرصيف، وهو ليس أكثر من بضعة «شلنات». قلت له:

الله يلعنك. أنت مهما تغتني تفضل برضك شحات».
أضحكه ذلك جداً، فقد كان يفعل تلك الأشياء بحكم دافع طفولي للضحك، ليس أكثر.

سألته الآن، ونحن في فندق «هلتون» في «سيدني»:
«كيف عرفت موعد وصولي؟»
قال ضاحكاً، لسبب سوف تعرفونه فيما بعد:
«ما هو أصله صديقي «درقا» اداني تفاصيل رحلاتك».
«طيب وكيف تأكدت اني حأنزل في الهوتيل بالذات»؟

«تليباثي ـ حاسة سادسة»، أنا كنت متأكد انك حتنزل في الهوتيل دا، أنت ما تعرفش الحكاية دي؟ أني باعرف الحاجات قبل ما تحصل؟ وعلى أي حال لو كنت نزلت في هوتيل ثاني، كنت أدور عليك وألاقيك. يعني حتروح فين»؟

٢٥

وأنا أتأهب للسفر إلى «دلهي» كلمني «منسي» من لندن. كان عصر يوم جمعة، ولم أكن سمعت منه منذ أشهر:

ـ اسمع يا طيب. أنا حامرّ عليك بكرة آخذ معاك كم يوم ومن هناك أسافر للرياض.
ـ بكرة أنا مش حاكون موجود في الدوحة لأني مسافر.
ـ على فين؟
ـ على دلهي.
ـ وعندك إيه في دلهي؟
ـ مسافر في مهمة.
ـ لا يا شيخ؟ طب اسمع. والله دي فكرة كويسة، إيه رأيك أجي معاك؟ أصلي أنا ما زرتش الهند قبل كده.
ـ يا ابني أنا مش مسافر من لندن إلى أكسفورد أو أدنبرة.. بقول

لك أنا مسافر إلى دلهي ومنها إلى سيدني، ومنها إلى طوكيو. ورايح في مهمة رسمية، يعني شغل، مش رايح اتفسح.

ـ طب وماله؟ دي حتكون رحلة ظريفة جداً، انت تعمل شغلك وبرضه نتفسح ونضحك ونتفرج ع الدنيا، يا للا بلاش غلبة، أنا خلاص قررت أجي معاك، بس انت اديني تفاصيل الرحلة.

ـ يا ابني أنا مسافر بكرة صباحاً الساعة سبعة ودلوقت الساعة أربعة، ايمتى حتحصل تعمل الحجز؟

ـ قلت الساعة سبعة؟ آه، دي طيارة الـB.A.. أنا كنت حاجز على طيران الخليج، لا دي بسيطة. أنت نسيت اني عندي شرطة سياحة؟ خلاص. بكرة حتلاقيني في المطار، دي حتكون رحلة عظيمة جداً.

كان يمر على الدوحة بين الحين والآخر في سفراته من الرياض وإليها، فقد كانت له فيها أعمال تجارية ثم تزوج هناك وأصبح له في الرياض زوجة ودار. استقبلته ذات مرة في مطار الدوحة، فإذا هو قد تزين بزي عربي، ولم أكن قد رأيته على تلك الهيئة من قبل.. عباءة و«دشداشة» و«غطرة» وعقال، وله لحية صغيرة على شكل مثلث و«عنفقة»، وليس له شارب، بدا لي كأنه «خواجا» يمثل دور عربي في فيلم أمريكي. حجزه موظف الجوازات، فذهبت أسأله قال:

ـ هادا الرجال يحمل جواز سفر أمريكي واسمه مايكل ما أدري إيش، وهيئته عربي ويتكلم عربي ويقول إنه مسلم، إيش هادا؟ هذا

لازم جاسوس.

كان «منسي» سعيداً جداً بذلك الوضع المحير، مستغرقاً في الضحك. قلت للشاب القطري.

ـ يا ابني هذا ليس جاسوساً، هذا بلوى أكبر، أرجوك دعه يدخل على مسؤوليتي.

لحسن الحظ أعدت ضحكة «منسي» العجيبة التي تقول إن صاحبها لا يمكن أن يخبئ سراً أو يضمر شراً، أعدت الشاب القطري، فأخذ يضحك هو الآخر. أذن له بالدخول ولكنه احتفظ بالجواز من باب الاحتياط.

انتهت المكالمة التلفونية وأنا بين مصدق ومكذب وفي صباح اليوم التالي في الساعة السابعة دخلت الطائرة فإذا ثمة صاحبي بعينه. لا بد أنه نام طول الطريق من لندن واستيقظ نشطاً كعادته. يقال إن نابليون كانت عنده هذه الموهبة. ينام في أي وقت وفي أي مكان، وأحياناً ينام لبضع دقائق ويصحو فكأنه نام ساعات. وإذا كانت العبقرية تقاس بسهولة النوم، فإنني أشهد أن «منسي» كان عبقرياً. نام في صحن الحرم المكي الشريف بين صلاة المغرب والعشاء، والناس في زحام وتهليل وتكبير. كان ذلك في عمرتي الأولى، وقد زاملني فيها. وكان معنا شاب من الحرس الوطني السعودي، فنكون في الشوط الخامس في السعي، و«منسي» ما يزال يتلكأ في الشوط الثاني. نمر عليه فنجده قد ضل الطريق فنوجهه وجهة الصفا أو المروة، ثم نعود إليه فإذا هو قد تاه مرة أخرى. ولما قضى سعيه بعد لأي، نام نوماً عميقاً وكأنه في داره وفي غرفة نومه، إلى أن نبهناه

لنعود إلى جدة، قلت له:
ـ الله يخيبك، هل هذا مكان ينام فيه الإنسان؟
قال:
ـ ما هو أصلي أنا ماليش ذنوب. عشان كده نمت لأني مرتاح الضمير.

أسعدته الدهشة على وجهي، وكان قد حجز لي المقعد المجاور له، لم يقف ليحييني ولكنه أخذ يملس كرشه بيديه وينظر حوله كأنه يريد أن يشهد جمهوراً غير مرئي على المعجزة الجديدة التي أنجزها.

ـ شايف يا ابني ازاي؟ أنت ما تخيلتش اني حاقدر اعمل الحكاية دي، مش كده؟ دا أنا قلبت الدنيا، عملت اللي ما يعمل عشان اغير الحجز.

بعد ذلك «دوشني» بالثرثرة إلى أن وصلنا دلهي، فأضاع عليّ تلك المتعة الخاصة التي أجدها في لقاء مدينة جديدة عليّ من الجو، أن أقدم على مدينة لا أعرفها، في وضح النهار، أراها من الطائرة على كامل هيئتها مثل نموذج مصغر. بجبالها إذا كان لها جبال، وصحرائها إذا كانت وسط صحراء، ونهرها إذا كانت على نهر. ولعل تلك هي الصورة التي تعلق في الذهن، بعد أن ينسى الإنسان أسماء الشوارع وأشكال المباني وزحمة الناس والسيارات.

أنِسَ له الدكتور حسن نعمة سفير قطر، وابراهيم طه أيوب سفير السودان، وألفاه كأنهما يعرفانه من زمن، فأسعده المكان وطابت له الحياة. وكان «منسي» رحمه الله، على ذكائه وسعة تجربته، فيه براءة الطفل. حين يحس أنه محبوب ومقبول، يكون في أحسن

حالاته، فتصفو روحه ويشرق ذهنه وتتأجج طاقة المرح الساكنة أصلاً غير بعيد في طبعه.

كذلك كلف به «درقا» الموظف الهندي الذي كلفه السفير القطري بتنظيم مقابلاتي وتنقلاتي. ولكنه أخذ بـ«منسي» وانصرف له كلية.

الدكتور حسن نعمة الذي ما يزال سفيراً لدولة قطر في «دلهي» إنسان لا تجد مثله كثيرين. نال درجة الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة «كيمبردج» واختارته دولة قطر سفيراً لها في الهند منذ ما يربو عن عشر سنوات، فأحب الهند وعشق فنونها وآدابها وحضاراتها فطاب له المقام فيها. وكانوا كلما أرادوا أن ينقلوه إلى دولة أخرى، يهرع إلى الدوحة راجياً أن يتركوه حيث هو، فيتركونه. وهذه من حسنات دولة قطر، وأنا أشهد عن تجربة أنها دولة كثيرة الحسنات، إذا وجدت أن سفيراً ارتاح في بلد، لا تنغص عيشه بالنقل. وقد تركتْ صديقنا عبد الله الجيدة في الرباط عقداً من الزمان.

هذا، وقد عاشر حسن نعمة السودانيين في «كيمبردج» وفي «الدوحة» فحفظ شعر الحردَلّو الكبير والتجاني يوسف بشير. يقول لك حين تلقاه «يا زول. أنا راقد قفى وأمدخ المصطفى». والسوداني

حين يقول ذلك، فمعناه أن الحياة قد طابت له خصوصاً، فيجيش خاطره بمدح الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

لم تكن هذه الصورة بعيدة عن حال الدكتور حسن نعمة حين لقيناه، «منسي» وأنا، في دلهي، وجدنا له داراً جميلة رحبة مبنية على طراز إسلامي مغولي مع مسحة من الطراز الإنجليزي في عهد الـ«راج» (Raj). وللدار باحة واسعة مُعشبة ترعى فيها أبقار تدرّ له اللّبن غريضاً. وكان يعيش حياة بسيطة متقشفة، طعامه اللّبن الرائب في الغالب. وكان كثير السفر، طاف الهند شرقاً وغرباً، ودرس موسيقاها وفنونها وعمارتها وآدابها. وهو إلى ذلك شاعر مجيد وراوية للشعر العربي قديمه وحديثه. ومغرم بصفة خاصة بالشعراء المسلمين «الميتافيزيقيين» أمثال جلال الدين الرومي وابن الفارض والشيرازي وسعدي. لذلك لم يكن عسيراً عليه أن يجد لـ«منسي» مكاناً في تلك الآفاق الرحبة التي يعيش فيها، فتآلّفا دون مشقة.

كذلك أنِسَ لـ«منسي» سفير السودان، إبراهيم طه أيوب. فهو من «الحلفاويين» كما نقول، نسبة إلى «وادي حلفا»، وهؤلاء قوم يعتبرهم المؤرخون أعرق شعوب وادي النيل، وكانت ديارهم تمتد من جنوب مصر إلى شمال السودان، مكوّنة ميثاقاً من لُحمة جسدية بين البلدين. إلى أن أغرقت مياه السد العالي ديارهم، فنُقِلَ سكان الجانب المصري إلى أطراف الصعيد، وأجليَ الذين في الجانب السوداني إلى أرض البُطانة في الشرق. الله أعلم أيهما أفضل، أن لو بقيت تلك الرّحم موصولة، أو أن تكسب مصر مزيداً من الماء ومزيداً من الكهرباء!

وهم قوم اشتهر عنهم في شطري وادي النيل، أنهم أهل نزاهة

واستقامة وجرأة في الحق، ونوع من القول الساحر الذي يلقونه بشكل عفوي. وفوق ذلك فهم أهل دراسة وصُنّاع دول. فقد كان منهم سدنة المعابد الفرعونية من قديم، وفي دمهم الإخلاص للرمز والتفاني في خدمة «المؤسسة». وحين جاءهم العرب بالإسلام الحنيف، قبلوه سلماً لا حرباً، لأنهم رأوا لأول وهلة أنه الحق ومنهم على الأرجح «بلال» مؤذن الرسول... ومنهم في تاريخ السودان الحديث جمال محمد أحمد، أحد المفكرين المعدودين بين عُدوتي الوادي والذي لم ينل حظه كما يجب، رغم أنه صار سفيراً ووزيراً. ومنهم إبراهيم أحمد، أحد رواد الحركة الوطنية وأحد المؤسسين لجامعة الخرطوم. ومنهم داءود عبد اللطيف الذي كان محافظاً ثم وزيراً، وكان من الأكفاء ومن مشاهير الأذكياء الظرفاء في السودان. ومنهم محمد نور الدين، من الرواد الأولين، ومن مؤسسي الحزب الوطني الاتحادي، وكان يدعو صراحة إلى وحدة اندماجية بين مصر والسودان.

يحكى أن محمد نور الدين كانت تربطه صداقة قوية بعبد الله خليل، الذي كان على النقيض تماماً في فكره السياسي، فقد كان من قادة حزب الأمة وصار رئيساً للوزارة في أول حكومة لحزب الأمة. وكانا فقيرين شأن كل الزعماء تلك الأيام. علم السيد عبد الرحمن المهدي أنهما في ضائقة، فكلف أحد معاونيه أن يحمل مبلغاً من المال لكل واحد منهما. ذهب الرجل أولاً إلى عبد الله خليل، ولما أعطاه المال، قال له:

«محمد نور الدين أكثر حاجة مني فاذهب بالمال إليه».

قال له الرجل «خذ المال فإن السيد أرسل مثله لمحمد نور الدين». ثم

ذهب الرجل إلى محمد نور الدين، ولما أعطاه الهدية، قال له:

«عبد الله خليل أحوج مني فخذه إليه». فأفهمه ان السيد قد أرسل مبلغاً مثله لعبد الله خليل. ولما جاء إلى السيد عبد الرحمن المهدي، عليهم جميعاً رحمة الله، وقصّ عليه القصة، بكى...

جمعتني الظروف صدفة في عمّان بالأردن منذ عامين، بأحمد المهدي، وهو ابن السيد عبد الرحمن المهدي وعم الصادق المهدي، وكنت قد عرفته في إنجلترا حين كان يدرس في جامعة «أكسفورد»، ثم عملت معه فترة قصيرة لما كان وزيراً للإعلام في حكومة الصادق المهدي الأولى عام ستة وستين، وهو من جيلي وبيني وبينه مودة. سألته عن صحة هذه القصة فأكدها لي، وقال:

«سوف أقص عليك ما هو أعجب منها. حل وفد من الحزب الشيوعي السوفياتي ضيفاً على الحزب الشيوعي السوداني. ولما سمع السيد عبد الرحمن المهدي، نادى عبد الخالق محجوب أمين عام الحزب الشيوعي السوداني، وكان يحدب عليه ويعامله كابنه لأنه كان صديقاً لوالده، وقال له:

«يا عبد الخالق، أنا سمعت أن الشيوعيين الروس نزلوا ضيوفاً عليكم، وانا أعرف أن حزبكم ما عنده قدرة ضيافتهم وإكرامهم. نحن يهمنا أن يأخذوا فكرة طيبة عن السودان وأن الشيوعيين في السودان ناس كرماء يقومون بواجب الضيف. كيف أنتو ماشيين تكرموهم؟».

أجابه عبد الخالق محجوب:

«والله يا سيد نحن ما فكرنا في الموضوع دا... نكرمهم على قدر قدرتنا. يمكن نعمل لهم حفلة شاي».

فقال له السيد عبد الرحمن:
«أبداً. حفلة الشاي مش كفاية. تعزموهم كلهم للعشاء هنا. نعمل لهم عشاء كبير عندي هنا».

وهكذا اجتمع الشيوعيون، سودانيون وبلشفيك، على مائدة السيد عبد الرحمن المهدي رجل الدين وإمام طائفة الأنصار، وراعي حزب الأمة... أولئك رجال من أمة قد خلت. رحمهم الله رحمة واسعة.

ذلك، ومن قوم إبراهيم طه أيوب أيضاً، محمد توفيق أحد أركان الحزب الاتحادي الديموقراطي، وكان وزيراً للخارجية في حكومة الصادق المهدي بعد انتفاضة رجب المباركة، وهو الآن في السجن. وذلك من عجائب السودان، أنه لا يمر عليه وقت إلا وتجد فيه زعماء يحكمون، ولهم نظراء داخل السجون، كأن هذا العراء الشاسع لا يتسع لهم جميعاً في وقت واحد. ومن الأماني العزيزة قبل أن يغادر الإنسان هذه الحياة الدنيا، والعمر مثل ظل الضحى أخذ يتقاصر، وذلك الأفق الذي كان يبدو بعيداً أخذ يدنو، أن يرى زماناً يكون الناس فيه كلهم طلقاء، ولا يكون داخل السجون إلا القتلة الحقيقيون واللصوص الحقيقيون.

كان إبراهيم طه أيوب، الذي تقلبت به الأحوال بعد ذلك، ذكياً، فأحب في «منسي» ذكاءه، وكان ضحوكاً فأحب في «منسي» ميله للضحك، وكان طريفاً، فوجد إنساناً لم ير أحداً على شاكلته من قبل.

هذا، ونحن في دار الدكتور حسن نعمة في «دلهي» صيف عام ثمانين وتسعمائة وألف. والليلُ ساكن إلا من عازف ينقر على الـ«سيتار» تلك الألحان الهندية الحزينة التي تمزّق نياط القلب. وقد كان القلب خالياً لم يتنور بعد نارهم من واء أزرعات، ولا انبرى له الطيف الذي أقضّ مضجع البحتري:

ألم تـرَ لـلـبـرق كـيـف انـبـرى
وطـيـفِ الـبـخـيـلـةِ كـيـف احـتـضـرْ
خـيـالٌ ألمَّ لـهـا مـن «سُـوى»
ونـحـن هـجـودٌ عـلـى «بَـطْـن مَـرْ»

٢٧

انتبهت في «دلهي» إلى صفة أخرى في «منسي» لم ألحظها من قبل. كان مثل بعض الحيوانات التي وهبتها الطبيعة قدرة التكيف الجسدي، حسب البيئة التي تسكنها. فإذا عاشت في خضرة وزرع، يصبح لونها أخضر. وإذا عاشت في الرمل، يتلون جسمها بلون الرمل. طبعه لم يكن متقلباً. أبداً. كان دائماً على سجيته في كل الأحوال. لكنني نظرت إليه في الهند. فإذا هو «هندي» بالمعنى الجسماني. اكتسى جسمه لوناً أعمق سُمرة، أو هكذا خُيّل لي، وبدا لي شعر رأسه، أو ما بقي منه، مثل شعر الهنود. تناغمت خلجات وجهه وحركات يديه مع تواتر حركات الهنود. وكان يعرف بضع جمل من اللغة الهندية مثل لغات كثيرة لم يكن يعرف إلا جملاً منها، يستعملها بطريقة توحي أنه ضليع فيها. أضف إلى ذلك موهبته في رفع الكلفة وتخطي الحواجز، وتعاطفه المتأصل مع الضعفاء وصغار الناس. لا عجب إذاً، أن «دُرقا» أقبل عليه كأنه

يعرفه من زمن، وانصرف له كليّة. يكون عندي موعد مع مسؤول في الدولة، فأنا لم أجئ سائحاً، وإنما جئت في عمل، فلا أجد السيّارة، ولا أجد «درقا» وأذهب إلى موعدي في سيارة أجرة. وأسأل «درقا» فيما بعد:

«أين كنت يا «درقا؟»».

فيقول:
«كنت مع الدكتور أحمد».

وصرت أحياناً أضطر إلى اصطحاب «منسي» إلى مقابلاتي، حتى أضمن السيارة.

لو أن دولة قطر كانت تعلم أن «منسي» سوف يصبح طرفاً في هذه القضية، فلعلها كانت تعدل عن عزمها، أو تكلّف شخصاً غيري بتلك المهمّة. لقد أخذت قطر قرارات مؤتمرات وزراء الإعلام مأخذ الجد، وكل الكلام عن صورة العرب المشوهة في العالم، وانبرت، نيابة عن الدول العربية، لدراسة إمكان إنشاء مؤسسة إعلامية كبرى، على نمط المؤسسات العالمية الكبيرة، مثل مؤسسة فورد وروكفلر والمجلس البريطاني ومؤسسة جوته الألمانية، والمؤسسات الثقافية والإعلامية في فرنسا والسويد واليابان. وكان الهدف، أن تقوم هذه المؤسسة العربية بتمويل ضخم، من الدول العربية البترولية خاصة، وتنطلق في العمل في آفاق الإعلام الرحبة والثقافة والفكر والفن، ناقلة حضارة العرب بكل ثرائها وتنوعها، في ماضيها وحاضرها، إلى شتى أرجاء المعمورة. بمعنى آخر، أن يصبح العرب مشاركين فاعلين في سوق الأفكار المطروحة في العالم، ومساهمين بما عندهم

في «مائدة» الحضارة الإنسانية، بدل أن يكونوا عالة على الآخرين، يأخذون ولا يعطون. تصوّر أيّ حلم رائع لو أنه تحقق. وكان القصد أيضاً أن تكون هذه المؤسسة مستقلة تماماً، تتحرك بلا قيود ولا حدود في إطار الهدف السامي المتفق عليه أصلاً. ولا بد لي من القول، إحقاقاً للحق، إن سمو أمير دولة قطر تحمس لهذه الفكرة حماسة بالغة، وأيدها تأييداً مطلقاً.

وهكذا اختارت دولة قطر رجل الإعلام الكبير، الأستاذ محمود الشريف، وقد كان مديراً لوزارة الإعلام القطرية قَبْلي، ليسافر إلى أمريكا، وانتدبتني لأسافر للهند وأستراليا واليابان وبعض دول أوروبا الغربية. وقد كلفنا بأن نتعرّف على «الصورة العربية» في تلك البلاد، ونلم بأنماط المؤسسات التي على غرار المؤسسة العربية المرجوة. وقد رأينا عجباً. وئد الحلم الجميل في مهده لسوء الحظ، ولم ترتفع الهمم إلى مستوى الطموح النبيل. إلا أنني شخصياً استفدت فائدة لا تقدر بثمن، وقد كانت تلك عارفة أسدتها إليّ دولة قطر، فلولاها لما أتيح لي أن أزور تلك البلاد البعيدة، وأتعرف على تلك العوالم الغريبة.

وصلنا «دلهي» في اليوم الذي مات فيه «سانجي غاندي» الابن الأكبر لرئيسة الوزراء. إذ سقطت به طائرته، وكانت تعده ليخلفها في الحكم. وكان شاباً مغامراً جريئاً، يثير حباً عميقاً لدى بعض الناس، وكراهية مريرة لدى البعض الآخر، فوجدنا أغلب الهنود حزانى لمصرعه، وقلة من الشامتين. وقد حزن الدكتور حسن نعمة، سفير دولة قطر، حزناً عميقاً، فقد كان صديقاً لـ «سانجي» ومعجباً به، ويؤمل فيه خيراً كثيراً في مساندة قضايا العرب.

لم تكن الهند غريبة عليّ، فقد قرأت شعر رابندرانات طاغور وسيرة حياة غاندي وسيرة نهرو وشاهدت أفلام المخرج الهندي الموهوب «سَتَاجِتْ رُويْ» وشغفت حباً بموسيقى «رافي شانكار» واستمعت إلى نهرو الفذ عن قرب، يتحدث في نيويورك عام ستين. وكنا في السودان ونحن طلبة في المدارس الثانوية أواخر الأربعينيات، نعجب بأفكار المهاتما غاندي، ونتابع باهتمام مسيرة كفاح الهند ضد الاستعمار البريطاني. بل إن ظهور مؤتمر الخريجين في السودان كمنطلق للعمل الوطني، كان متأثراً إلى حد كبير بحركة المؤتمر الهندي. كنا نعرف أسماء زعماء الهند، ونعرف جغرافيتها وتاريخها وتستهوينا أسماء مدنها، ونحفظ قصيدة شوقي التي حيّا فيها غاندي وهو في طريقه إلى مؤتمر المائدة المستديرة في لندن:

سلام النيل يا غاندي
وهاك الزهر من عندي
سلام حالب الشاةِ
سلام ناسج البرد

وكنا نطرب بصفة خاصة لقول أمير الشعراء:

وقل هاتوا أفاعيكم
أتى الحاوي من الهند

كنا نحس، أن هذا الرجل النحيل، العاري الجسم إلا من أزار من القطن، نسجه بيديه، ينطوي على معنى جسيم يؤجج خيالنا، كنا قد قرأنا عنه في الكتب في سير المسلمين الأوائل، ولم نره مجسماً

أمام عيوننا من قبل، اللهم إلا عند قلة من النسّاك والزهّاد.

هذا، وكانت بين السودان والهند علاقة بحكم الاستعمار البريطاني للبلدين، في أساليب الحكم والإدارة والتعليم وتخطيط المدن. وكان يفد علينا أحياناً بريطانيون عملوا في الهند، أذكر منهم ضابطاً في الجيش، يدعى كولونيل أكستر، جاء يعلمنا اللغة الإنجليزية. فرض علينا كتاباً كان بعيداً عن مداركنا في تلك السن المبكرة، وقد عرفت بعد ذلك بسنوات أنه من روائع الأدب الإنجليزي، وهو كتاب «مذكرات صائد ثعالب» للكاتب الكبير «سيقفريد ساسون». استسخفنا الكتاب، وقلنا ما لنا ولصيد الثعالب وطلبنا من أستاذنا الكولونيل ان يستبدل به كتاباً آخر. لكنه استشاط غضباً، وقرّعنا بلهجة قاسية متعالية لم نتعود عليها. ولما عاد إلينا في اليوم التالي، وجد أننا قد صففنا له نسخ الكتاب على منضدته، وجلسنا صامتين، علت الدهشة وجهه ثم صرخ غاضباً:

«ما معنى هذا؟».
لم يردّ عليه أحد منا، وظللنا ننظر إليه في صمت.

لم يقصر في شتمنا، وقال إننا «همج» لا تجدي فينا تربية ولا تعليم، ثم خرج. ولما علم ناظر المدرسة بما حدث، وكان اسكتلندياً فاضلاً يدعى «مستر لانج» وكان محباً للسودان، عليماً بطبائع أهله، كفانا مشقة الكولونيل، فأعادوه إلى بلاده في غضون أسبوع.

كان ذلك أول عمل من أعمال «المقاومة السلمية» نقوم به، ونحن بعد أيفاع لم نبلغ العشرين. ولم يكن ذلك بوحي من فلسفة المهاتما غاندي، فذلك في طبعنا ومزاج شعبنا، أن نقاوم الغطرسة والتسلط

بالاحتقار والصمت. ثم إذا فاض الكيل وعيل الصبر، نهبّ فجأة، كما يفيض نهر النيل وتهب الأعاصير في صحراء العَتْمورْ. فعلنا ذلك مع الأتراك ومع الإنجليز ومع الحكام الوطنيين «أولاد البلد».

خليليّ هذا ربعُ عزةَ فأعقلا... هذه «دلهي» إذاً. عاصمة «عموم الهند». «إنسان عين» الأمبراطورية البريطانية أيام عزها. مثل الخرطوم كما بناهما المستعمرون، ولكن شتان بين هذه وتلك.

هذا، وصاحبي «منسي»، مثل صاحب الشهْرزَوري «جاء يقتفي الآثار»، هو على أثري وصاحبه «درقا» على أثره، وكلنا يغذّ السير نحو ذلك الأفق البعيد القريب.

لم يكن في «الدوحة» تلك الأيام، وليس فيها حتى الآن حسب علمي، سفارة أسترالية. لذلك رتّبت أمري على أن أحصل على الفيزا في «دلهي». وقد اتصلنا بالقنصل الأسترالي في البحرين، فوعد أن يكتب إلى سفارتهم في «دلهي» ليمنحوني الفيزا.

ذهبنا أنا و«منسي» وهو يحمل جوازه الأمريكي، وأنا أحمل جوازي السوداني، وهو جواز ظللت اتشبث به كل هذه السنوات لا أرضى عنه بديلاً، رغم كل ما يسببه لي من متاعب، حتى داخل السودان نفسه، حيث تدخل بصعوبة وتخرج بصعوبة، يعطونك إياه لعامين فقط، والدنيا كلها تعطي مواطنيها الجوازات لخمسة أعوام، ومنهم من يعطيه لعشرة أعوام. ويطالبونك بشيء اسمه تأشيرة الخروج، كأنك في ألمانيا الشرقية. وحتى في ألمانيا الشرقية، انهارت الحيطان، ورفعت القيود وأصبح الناس يدخلون ويخرجون، أحراراً كما

ولدتهم أمهاتهم.

دخلت لمقابلة القنصل قبل «منسي» وكنت قد ملأت «الفورمات» واستوفيت الإجراءات. قلب صفحات الجواز طويلاً، وتمعّن فيه ملياً، وكأنه شيء لم ير مثله من قبل. قال لي بعد لأي:

«أنا آسف يا مستر صالح. الموافقة لم تصل من «كانبرا». عليك أن تنتظر... ربما تصل الموافقة في غضون أسبوع».

«ليس عندي وقت... سوف أسافر غداً أو بعد غد».
«أنا آسف لذلك».

«ولكن لماذا «كانبرا»؟ أنا أعلم أن من حقكم أن تمنحوا الفيزات دون الرجوع إلى «كانبرا».

«توجد حالات يجب أن نطلب فيها موافقة الوزارة في «كانبرا». وهذا إجراء طبيعي... كل الدول تفعل ذلك... على أي حال الأمر بسيط. سوف نتصل بـ«كانبرا»... يمكنك أن تحصل على الـ«فيزا» من سفارتنا في سنغافورة».

«لكنني لست مسافراً إلى سنغافورة».

«إنها في طريقك... لماذا لا تنزل فيها ليوم أو يومين؟».

«اسمع، إذا كان دخول بلدكم بهذه الصعوبة فسوف ألغي الرحلة كلية... أنت تعلم أنني مسافر إلى أستراليا، ليس للسياحة، ولكن

في مهمة رسمية. أشكرك على أي حال...».

رآني «منسي» أخرج غاضباً، وحاول أن يكلمني، ولكنني سارعت بالعودة إلى الـ«هوتيل».
لم تمض ساعة، وإذا بالتلفون يدق.
«مستر صالح؟».
«نعم».
«هنا السفار الأسترالية. أنا سكرتيرة السفير. إنه يود أن يتحدث معك».

ثم إذا صوت مرح يقول:
«مستر صالح. أنا آسف جداً لسوء التفاهم الذي حدث لك مع القنصل. إنه لم يكن يعلم من أنت. دكتور مايكل موجود معي الآن وقد شرح لي كل شيء. يسعدني أن تزورني في مكتبي. الآن إذا كان ذلك يناسبك... سوف تجد الفيزا حاضرة... هل عندك وسيلة نقل...؟ يمكننا أن نرسل لك سيارة».

لم تكن عندي وسيلة نقل في الواقع، فقد كانت السيارة ومعها «دُرقا» وقفاً على «منسي» كالمعتاد. فضّلت ألاّ استغل كرم السفير. فأخذت سيارة أجرة، وفي الطريق تخيّلت ما حدث. في دقائق ألمَّ «منسي» بجليّة الموقف من القنصل، فسارع واقتحم مكتب السفير، دون استئذان، كعادته. وفي وقت قصير جعل السفير يألفه، كأنه يعرفه من زمن. رسم له صورة مبالغاً فيها عن «أهميته» هو أولاً، وعن «أهميتي» ثانياً، وعن «أهمية» المهمة التي نقوم بها معاً في أستراليا ثالثاً.

استقبلوني عند الباب، وساقوني باحترام زائد إلى مكتب السفير.

وجدت صاحبي «منسي» أو «دكتور مايكل» مسترخياً يشرب الشاي. هبّ السفير من مقعده وهرع يرحب بي. كان شاباً في أوائل الأربعينيات من عمره، ممشوق القامة، مملوءاً حيوية، كما يتخيّل الإنسان الأستراليين. سمْتُه مزيج من جامعة «هارفرد» وجامعة «كامبردج».

لاحظت أن «منسي» في تلك الفترة القصيرة، قد رفع الكلفة تماماً مع السفير، والأستراليون أصلاً، مثل الأمريكان، في طبعهم بساطة وبعد عن التكلُّف. وكأنما أراد «منسي» أن يفهمني مدى الإنجاز الذي حققه، فقال:

«هل تعلم أن «ريتشارد» حصل على الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة «ييل»؟».
قلت متغابياً:
«ريتشارد؟!».
«سعادة السفير».
قال السفير:

«أنا آسف جداً لما حدث يا مستر صالح. أنت تعرف القناصل. يطبقون القانون بطريقة روتينيّة. طبعاً هم معذورون. علمت من دكتور مايكل أنك كاتب كبير وشخصية مرموقة في دولة قطر».

كان «منسي» يعلم أنني سوف أنفي عن نفسي هذه الصفات، فلم يترك لي فرصة للرد، ولكنه سارع فقال ضاحكاً:

«مستر صالح رجل متواضع. لا عجب أن القنصل لم يهتم به كما يجب».

ساقنا الحديث إلى الكاتب الأسترالي «باترك هوايت» والرسام الأسترالي «سدني نُولانْ» ومغنيّة الأوبرا الأسترالية «جون سذرلاند». والأستراليون لأنهم بعيدون عن مراكز الحضارة ويعلمون أن الأوروبيين خاصة، يعتبرونهم أجلافاً لا فكر لهم ولا ثقافة ولا فن، يهمهم جداً أن يقدِّموا أنفسهم إلى العالم على أنهم قوم متحضرون يحتفون بالفن والثقافة. لذلك فهم فخورون بالأستراليين الذين أحرزوا شهرة واسعة في العالم. ولذلك أيضاً فإن السفير قد سعد بأننا لم نكن جاهلين تماماً بأستراليا.

كان إنساناً لطيفاً بحق، أنسنا له وأنس لنا، وكان واضحاً أنه يريد أن يستقبلنا أطول وقت.

أعطاني الجواز وفيه تأشيرة الدخول «مجاملة» ولا بد أنه مهد لي الطريق أيضاً، لأنني، كما ذكرت لكم حين وصلت إلى سدني سمح لي موظف الجوازات بالدخول، دون أن يعبأ بتقليب صفحات الجواز.

قال السفير:
«يسعدني أن تتعشّيا معي هذا المساء إذا لم تكونا مرتبطين».

كنت أعلم أن «منسي» سوف يقبل دون تردد، فهذا طريق جديد انفتح له، يسير فيه كعادته دون أن يلوي على شيء؟ تجربة إنسانية يلاحقها كما يفعل الشعراء والفنانون، وأنا أيضاً لا أبالي أفعل ذلك في بعض الأحيان.

سارعت بالاعتذار للسفير، ولا بد أنني فعلت ذلك بلهجة حاسمة

لأن «منسي» اكتفى بأن نظر إليّ باستغراب ولم يقل شيئاً.

لعلني لم أقبل دعوة السفير، لأنني أحسست أنه يبالغ في الحفاوة بنا على افتراض، «أهمية» ليست لنا في الواقع.

اتّضحت لي في «منسي» خلال تلك الرحلة مواهب ديبلوماسية لم أعهدها فيه من قبل، ولكنها كانت مثل كل مواهبه، شيئاً فوضوياً ليس له ضابط ولا رابط، تحتاج إلى شخص، ربّما مثلي، يكبح جماحها ويوجهها الوجهة الصحيحة. حينئذٍ تتحوّل إلى طاقة مبدعة بحق. وربما أنه قرر منذ البداية، هكذا ضربة لازب، أنه طرف في المهمة التي كلّفتني بها دولة قطر، فقد آثرت أن أستفيد منه على أية حال، فصرت أصطحبه معي إلى المقابلات التي ليس لها طابع رسمي. ولعله لم يكن لي في الأمر حيلة، فقد كان «دُرقا» وسيارته، وقفاً على «منسي».

قابلتُ المسؤولين في الدولة بمفردي ورافقني «منسي» في مقابلاتي لرجال الصحافة والإذاعة والتلفزيون ومؤسسة الهند التي أنشأها «نهرو» عقب الاستقلال مباشرة وهي مؤسسة على نمط المؤسسة

التي كانت دولة قطر تفكر في إنشائها. وجدنا صحافة معادية لرئيسة الوزراء، مسز غاندي، على وجه العموم، وخاصة الصحافة الناطقة باللغة الإنجليزية. وهي صحافة كما تدل أسماؤها، «ستيتسمان» (Statesman) و«تايمز أوف إنديا» (Times of India) وغير ذلك، قامت على طراز الصحافة البريطانية ومتأثرة بها. وقد قابلنا رئيس تحرير هاتين الصحيفتين، ولمسنا منهما عداء شديداً لمسز غاندي يصل حد الكراهية الشخصية. ويمكن القول إن ذلك العداء كان يمتد إلى كل سياستها الخارجية، بما في ذلك تأييدها للقضايا العربية. وقد أبلى «منسي» بلاء حسناً في هذه اللقاءات وكانت نزعته «الهجومية» تُجدي في تلك الحالات.

كنت وإيّاه مثل لاعبي كرة، يفهم أحدهما الآخر فهماً تاماً. كنت أرمي الفكرة، فيتلقفها ويجري بها فإذا وجدت أنه ابتعد بها عن القصد أعدتها إلى مجراها. وكنا أحياناً نتعمد إبداء وجهات نظر تبدو مختلفة، حتى لا يظن السامع، أننا مثل بعض الإذاعات، نردد كلاماً رسمياً ممجوجاً. وكنا نعلم أن صورة العالم العربي في مخيلات الناس الذين نقابلهم صورة غائمة على أحسن الفروض، فكنا نحاول أن نترك لديهم ذكرى عنا كأناس مستنيرين متحضرين. ولأن الأشخاص الذين قابلناهم، كانوا أشخاصاً مثقفين في الغالب، فكنّا نجهد أن نجعلهم يحسّون أننا أنداد لهم... على الأقل. أقول على الأقل لأن «منسي» كان يوهمهم أنهم أدنى منه بكثير. وفي الواقع، فإن الأمر لم يكن صعباً، فللهند اهتمام قديم لديّ وكان «منسي» كعادته يُحرز بالقليل الذي عنده، أكثر مما أحرز أنا بالكثير الذي ربما يكون عندي.

كذلك أدهشني، أنني رأيت في «منسي» خلال تلك الرحلة حماسة

للإسلام لم أعرفها فيه من قبل.

تسألني لماذا أسلم أصلاً؟ لا أدري على وجه التحديد، ولكنه اعتنق الدين الحنيف ببساطة وكأنه ينتقل من دار إلى دار مجاورة. ولم يكن ذلك بغرض «تجارة يصيبها أو امرأة ينكحها». كان يقول إنه قرأ القرآن الكريم وهو صبي في «ملاوي» في الصعيد، مع أطفال المسلمين. وكان بالفعل يحفظ آيات منه، وذلك أمر ليس مستغرباً، فأقباط وادي النيل، وهم «ذوو قربى ورحم» اقتربوا جدّاً من المسلمين. وأذكر أن أبناء القبط كانوا يقرأون القرآن معنا في مدارس السودان، ويحضرون دروس الدين. وكان معنا قبطي يتلو القرآن بصوت جميل. وفي مدينة أم درمان حي يُسمى «المسالمة»، وهؤلاء أقباط هاجروا من مصر، وبعضهم دخل الإسلام، فتجد في العائلة الواحدة مسلمين ونصارى. كذلك الحال في بلاد الشام وربما في العراق أيضاً. وفي لبنان، تكاد لا تجد فرقة من هذه الفرق المتقاتلة، إلّا وفيها المسلمون والنصارى. وأنا أستعمل كلمة «نصارى» عمداً، فهذه هي الكلمة التي استعملها المسلمون والعرب طوال تاريخهم، وهي كلمة ليست فيها أية إيحاءات عدوانية، بل على العكس هي كلمة حافلة بالمودة والرحمة. أما كلمة «مسيحيون» فقد جاءتنا في العهود المتأخرة.

ونحن نعلم أن العرب النصارى انحازوا للعرب المسلمين في موقعة «اليرموك» وفي موقعة «القادسية» وقد قال القائد المسلم حين أصيب في موقعة القادسية، للعربي النصراني:

«أنت أخونا وإن لم تكن من ملّتنا فاحمل اللواء عني».

هذه هي الحال منذ قديم الزمان: التسامح الدِّيني من سمات أرضنا

ومزاج شعوبنا، ففيم إذاً هذه الحروب التي تُذكى نيرانها باسم الدين، وفي سبيل ماذا هذه العداوة والبغضاء والحزازات؟

ألامَ الخُلفُ بينكموا إلامَ
وهذي الضجةُ الكبرى علامَ
وفيمَ يكيدُ بعضكمُ لبعضٍ
وتُبدون العداوة والخصاما؟

وكأنما كُتب على الشعراء أن يسألوا هذه الأسئلة طوال التاريخ دون جدوى.

أسلم «منسي» في واشنطن على يدي إمام مسجدها، وسرعان ما أصبح داعية للإسلام، كأنه مسلم منذ ولد. وقد أنشأ إذاعة تدعو للإسلام، وكان يحاضر هنا وهناك في أمريكا عن الإسلام. وقد زعم أن أمة من الناس اعتنقت الإسلام على يديه. وكان يسألني متحدياً:

«أنا دخَّلت ناس كثيرة الإسلام. انت دخّلت كم واحد؟».

لعلّني «ليَّنت» قلوب بعض الناس، أو أنني أزلت بعض سوء الفهم عن الإسلام، هنا وهناك. أمّا أنني أدخلت أحداً في الإسلام، فاللّهم لا.

٣٠

عاد «دُرْقا» صاحب «منسي» بالتذاكر والحجز. تذكر «دُرْقا» الهندي؟ لقد كلّفتْه السفارة القطرية بتسهيل مهمّتي وتنظيم لقاءاتي، ولكنّ «منسي» استحوذ عليه فانصرف له تماماً، ولم يعُدْ يفيدني في شيء. انشغل «منسي» بالأسواق ومحلات تفصيل الثياب، حيث يصنعون لك بذْلة كاملة في يوم واحد. وقد وجد في «دلهي» أنواعاً فاخرة من الأقمشة زهيدة الثمن. كذلك لقي أصدقاء. عجيب كيف أنه كان يجد معارف وأصدقاء أينما ذهب. أما أنا فقد كان أمامي عمل لا بد من إنجازه. وقد أذعنت لذلك الوضع الذي لم يخل من طرافة، فكنت أرى «دُرْقا» طالعاً نازلاً، يجري من مكان إلى مكان وراء «دكتور أحمد». كنت أعبث به أحياناً فأستوقفه وأسأله:

«يا درقا. أين أنت؟ ألم يكن مفروضاً أن توصلني إلى مبنى

التلفزيون؟».

فيردّ بذلك الهدوء الهندي الذي يغيظ:
«أنا آسف يا مستر صالح. لكن دكتور أحمد كان عنده موعد هام».

وكان واضحاً لديّ، أن «منسي» قد أوهم «درقا» بأنه هو الموفد في مهمة من حكومة قطر، وأنني مجرد مرافق له.

يقول «منسي» ضاحكاً:
«اسمع. النهاردة تقدر تأخُذْ «درقا» والعربيّة. أنا مش محتاج لهم. بس على شرط أجي معاك».

لم أكن أجد بدّاً من أن أدعه يرافقني إلى بعض مقابلاتي الرسمية، وكان هذا يؤكد لـ«درقا» أن «دكتور أحمد» هو الموفد الحقيقي، وهو الجدير بالرعاية، وأنني مرافق له.

لكن «درقا» قد تجاوز الحد الآن. كنت قد طلبت منه أن يحجز لي على الطائرة إلى «بانجكوك» ثم «سدني». وكان «منسي» يريد أن نسافر إلى «بومبي» ثم إلى سدني. قلت له:

«يا أخي. يكفي أننا تعرفنا على مدينة في الهند. فلنتعرّف على مدينة في بلد آخر. ثم إن «بانجكوك» في خط سيرنا و«بومبي» تبعد بنا نحو الغرب».

أظهر لي أنه اقتنع بهذا الرأي، لذلك دهشت حين وجدت أن

«درقا» قد عمل الحجز عن طريق «بومبي».
«أما قلت لك أن تحجز لي إلى «بانجكوك»؟».

«نعم. ولكن دكتور أحمد أمرني أن أعمل الحجز إلى بومبي».

عاد «دكتور أحمد» إلىالهوتيل سعيداً لسبب أو لآخر. وعجيب أيضاً كيف أن «منسي» كان يجد سبباً للسعادة في كل خطوة يخطوها. هل الحياة مليئة بالمسرّات إلى هذا الحد؟ أم أنه كان يملك «مصنعاً ذاتياً» لإنتاج السعادة.

«اسمع. أنا سوف أسافر إلى «بانجكوك» كما قررت منذ البداية. إذا كنت تحب تسافر معي إلى «بانجكوك» فأهلاً وسهلاً. وإلاّ فمع السلامة».

«يا أخي بلاش حماقة. بانجكوك إيه بس؟ دي بلد كلام فارغ. أنا لازم أروح «بومبي» لأنه عندي موعد هام بتاع «بزنس».

سبحان اللّه. كنت أظن أنه قام بهذه الرحلة ارتجالاً، عفو الخاطر، فمتى رتّب «موعداً هاماً» في «بومبي»؟

«يا ابني أحنا ما بنلعبش... «البزنس» عاوزة كده.. هُبْ هُبْ. أنت فاكر الفلوس بتجي ببلاش؟ ولّا أنت فاكر أن الحكاية كلها أونطة؟».

أضحكني ذلك، فقال:
«صحيح الأونطة تنفع، بس لازم كمان شوية جهد».

قلت فليذهب إلى «بومبي» ولعل السُبُل تؤدي به إلى وجهة أخرى، وأخلو أنا إلى نفسي. وبعد أسبوع من ضوضاء «منسي» والفوضى التي تلازمه، كنت قد حَنَنْتُ إلى مصاحبة نفسي. الآن أمضي وحدي في طريقي، أنزل حيث أشاء، أتسكع في شوارع المدن الغريبة، وأتعرّف الأشياء على مهل، وأتمعّن في المشاهد، أنتقي منها كيف أشاء، أضعه في خزانة الذاكرة إلى حين. معي كتبي وأوراقي، ومعي زادي المطمور، الذي ربما قد نسيته، فأذكره فجأة حيث لا أتوقع... تذكّرني به هبَّة ريح أو لمعة ضوء أو صوت إنسان أو الشمس تشرق أو تغيب في أفق غريب. ومعي المتنبي العظيم رائد الآفاق، رهين مُفترق الطرق:

نحن أدْرى وقد سألنا بنجدٍ
أطويل طريقُنا أم يطولُ
وكثير من السؤال اشتياقٌ
وكثيرٌ من ردِّه تعليلُ
زوِّدينا من حسنِ وجهكِ ما دامَ
فحسنُ الوجوهِ حالٌ تحولُ
وصِلينا نصِلْكِ في هذه الدنيا
فإن المقامَ فيها قليلُ

هكذا أفضِّل أن تكون هذه الأبيات الجليلة. ليس «أقصير طريقنا أم طويل» وليس «نوِّلينا من حسن وجهك» فإنما أراد «الزّاد» طيَّب الله ثراه. والطريق قد يبدو طويلاً وما هو في حقيقة الأمر بالطويل. ثم قال، رحمه الله رحمة واسعة، هذا البيت الذي يقوم مقام قصائد عند غيره من الشعراء:

لا أقـمـنـا عـلـى مـكـانٍ وإنْ طـابَ
ولا يُمـكـنُ المكـانَ الـرحـيـلُ

والمكان «بانجكوك»، وما كانت، كما بدت لي يومذاك، «بالبلد الطيِّب».

قال المسؤول الكبير في وزارة الخارجية الأسترالية:
«اسمع. كوننا نبيع القمح والزُّبد واللحوم للعرب.. هذا لا يحتّم علينا أن نؤيِّد مواقفهم السياسية. ألا تعلم بأن أستراليا تسمّى «البلد المحظوظ»؟ عندنا كل شيء. البترول والزراعة والصناعة. بلادنا شاسعة، قارّة كاملة. هذه بلاد مملوءة بالخيرات. نحن لا نحتاج للعرب في أي شيء».

أغاظني الرجل ولكنّ صراحته أعجبتني. كنت قد قضيت معه نحواً من ساعة أحاوره وأداوره. ولاحظت أنه لم يقدّم لي قهوة أو شاياً، علماً بأنني جئت إلى موعده في التاسعة صباحاً. قلت له:

«ألا تقدِّمون شيئاً لضيوفكم؟ هذا وقت شرب القهوة أليس كذلك؟ نحن في بلادنا نقدم القهوة والشاي لضيوفنا».

قال وهو يضغط على الجرس:

«آه. أنا آسف. أنا شخصياً لا آخذ هذه المكيِّفات. تضر القلب. وهذه الحكومة قد فرضت علينا سياسة التقشف. يقولون إن أحوالنا الاقتصادية ليست كما يجب».

أسعدني التناقض الذي أوقعته فيه. البلد المليء بالخيرات، يعاني من ضائقة اقتصادية، ويفرض سياسة تقشف! وابتسمت له كما قال «الأستاذ»:

ولمَّا صار ودُّ الناس خِبّاً
جزيتُ على ابتسام بابتسام.

كنت وحدي في «كانبرا»، تلك المدينة الجميلة ذات الباحات الواسعة والميادين المُعشبة التي خططوها لتكون عاصمة إدارية. افترقنا «منسي» وأنا في مطار «سدني»، هو صوب لندن، وأنا صوب «كانبرا».

لم يستطع أن يجد وسيلة ليسافر معي إلى «طوكيو». كانت تلك أول مرة أراه عاجزاً أمام هدف يريد تحقيقه. قالوا له إن الوسيلة الوحيدة هي أن يسافر إما عن طريق «موسكو» أو يعود إلى لندن ويسافر من هناك إلى «طوكيو». وحاول أن يقنعني أن نسافر معاً عن طريق «موسكو». كدت أقبل، فذاك عالم لا أعرف عنه إلا ما قرأته في الكتب والصحف. يا ليت، ولي عند الروس حقوق من ترجمة كتبي، يمكن أن نعيش بها زمناً رغداً وننفقها عندهم بالرُوبل. حتى الروس يأكلون مال اليتامى؟

نعم، يا ليت، فنحن نعرف الكثير عن «الغرب»، إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وأمريكا. هذا هو العالم في نظرنا. نتعلم لغاته، ونعرف تاريخه، وأبداً نحن غادون رائحون إليه. نهيم به حبّاً ولا نأخذ منه بميزان هذا الحب. كيف قلت يا طيّبَ اللّه ثراك؟

إن كـان يـجـمـعـنـا حـبّ لـغُـرَّتـه
فـلـيـت أنّـا بـقـدر الحب نـقـتـسـمُ

أجل، نعشقه وننفر منه. أما الاتحاد السوفياتي والصين والهند واليابان وأمريكا اللاّتينية، فهي بلاد لا وزن لها في حسابنا. حتى أخواننا الذين شاركونا في صنع حضارتنا.. حتى الأفارقة، جيراننا وذوو رحمنا... يا ليتني. ولكن ليس عندي وقت، وأمامي عمل لا بدّ من إنجازه.

لو أنني بذلت أقلَّ جهد، لغيّر «منسي» مساره ليلحق بي في «طوكيو»، لكنني بعد نحو عشرة أيام، كنت قد ضقت بصحبته، وتقتُ إلى مصاحبة نفسي. لذلك ثبَّطت عزيمته بشتّى الطرق. شجعته أن يذهب إلى «باريس»:

«واللّه فكرة. أنا لي زمن ما شفتش «باربرا براي».. باريس حتكون حلوة جداً الأيام دي... بس يا خسارة أنت مش حتكون ويَّانا».
«معليش... أنضم إليكم بعد عودتي من «طوكيو».

«دي أول مرة تحصل لي الحكاية دي. قال إيه، إني تجاوزت الأميال المسموحة لي كشركة سياحة والكلام الفارغ دا... قلت لهم يا أولاد الإيه... ما هي طوكيو أقرب من هنا مما أرجع للندن... إنما

تعمل إيه؟ قوانين معقدة وناس ما تعرفش تتصرف».

«خلاص يا أخي. مش أنت زرت «طوكيو» قبل كده؟».
«وأنا زرتها يجي أكثر من عشر مرات.. أنا أعرف اليابان شبر شبر. أنت تعرف أني أتقن اللغة اليابانية؟».

«يا راجل حرام عليك! أنت تعرف لغة يابانية؟».
«أنت مش مصدق؟ أنت ناسي أن عندي مدرسة لتعليم اللّغات في واشنطن؟ بأحدث الطرق الـ«أوديُو فِزْيُولْ»؟ وأنا حتى ترجمت قصة لـ«مِشِيما» إلى اللغة الإنجليزية؟ أنت طبعاً ما سمعتش ب «مشيما».

«لا يا سيدي، سمعت. بس أنك تترجم قصة من اليابانية إلى الإنجليزية، دا افتراء صحيح. ونشرتها فين؟».

ضحك ضحكة تعني أن هذا الكلام قد يكون صدقاً وقد يكون كذباً، وعليّ أن أقبله على علاته ثم قال:

«حتحتاج لي بصحيح في اليابان. كنت حتستفيد منّي قوي في مهمتك».

«لا شك في ذلك. ولكن معليش أمري للّه. أحاول أقوم بالمهمة وحدي. أعمل ألْ أقدر عليه. طبعاً سوف أفتقد قدراتك المتعددة.. وعبقريتك».

«انت بتضحك؟ ما هو أنا فعلاً عبقري... ليه أنتو مش عاوزين تعترفوا بالحقيقة دي؟».

«شوف يا ابني. أنت فعلاً نموذج فريد من البشر... إنسان نسيج وحدِه، لن يتكرر.. أما أنك عبقري فالله أعلم».

«أولاً يا أستاذ اتعلَّم إزاي تتكلم عربي. عامل إنك كاتب وشغل «الحَّلبَّة» دا، وانت ما تعرفش قواعد اللّغة العربية، هي مش «وحدِه» بالكسر ولكن «وحدَه» بالفتح».
«ليه؟».

«لأنها ممنوعة من الصرف».
«يا ابني دي مضاف ومضاف إليه».

«أنت مش فاهم حاجة. أنت نسيت أن عندي «بكالوريوس» في اللّغة العربية من جامعة لندن؟».

ضحكت فقد كنت أعلم كيف حصل على تلك الشهادة. كنت أساعده في اللّغة العربية والتاريخ العربي. لم يكن يعرف الفرق بين عبد الملك بن مروان، الذي كان يسميه «عبد الملك بن أبي مروان» - وبين أبي جعفر المنصور، الذي كان يسميه «أبو جعفر بن المنصور». وفي ذات اليوم الذي نال فيه الدرجة جلسنا في مقهى في شارع «كنجزرود» في «تشلسي» ودخل معي في جدل حول مسألة لغوية. قلت له:

«اسمع. تذكّر أني أستاذك، وبدوني ما كنت تاخذ الدرجة دي».

ضحك الآن، بطريقة لخَّصت قصة حصوله على درجة «البكالوريوس» بكاملها، ثم قال:

«سيبك من الحكاية دي. بذمّتك مش أنا ساعدتك مساعدة رائعة في مهمتك؟ مش نحن ويّا بعض قمنا بعمل ديبلوماسي على أعلى مستوى؟».

«أشهد أنك أظهرت مواهب ديلوماسيّة لا يُستهان بها».
«إيه رأيك في حوارنا مع مستر «كاميرون»؟ مش كان حوار أذهل الراجل؟ أنت من ناحية وأنا من ناحية؟».
«كان كويِّس».

«والشاب الفلسطيني في الـA.B.S (هيئة الإذاعة الأسترالية). أنت ماشي ولا انت واخذ بالك. أنا فوراً عرفت أنه عربي، مش هو اللّي قدّمك للمخرج الأسترالي، وأجروا معاك مقابلة ساعة كاملة.. في أهم برنامج إذاعي عندهم؟».

«كله دا صحيح... فضلك لا يُنكر».

«بس أنت زغت مني ورحت عملت المقابلة لوحدك. أصلك خفت أني أخطف الأضواء منك».

«أكيد. هوّ أنا أعرف اتكلّم إنجليزي زيّك يا دكتور؟ بذمتك أنت صحيح عندك شهادة دكتوراه؟».

«إلاّ عندي شهادة دكتوراه! أنت لسّه ما تعرفش الحكاية دي؟ ما تعرفش اني أنا عندي مش شهادة دكتوراه واحدة.. أنا عندي تلات شهادات دكتوراه».

«يعني انت زي زكي مبارك.. يا راجل خاف اللّه».

«سيبك من الحكاية دي. بذمتك مش أنا وانت ننفع سفراء متجولين؟ تصوَّر لو عملونا سفراء نخدم القضية العربية. مش كان أحسن من الكلام الفارغ اللي بيعملوه دا».

بعد أكثر من عشرة أيام من مثل هذا اللغط، بدأت أبرَم بـ«منسي» وأتوق إلى أن أخلو بنفسي. لذلك لم أشجعه على السفر معي إلى «طوكيو». ومع ذلك حين جلسنا في مطار «سدني» هو يتجه إلى لندن وأنا إلى «كانبرا» أحسست ببعض الحزن. ولما أقلعت طائرته قبلي تمنيت لو استبقيته. والآن، وأنا أواجه هذا الإنسان الصَّلف، فكرت في «منسي»، قلت يا ليته كان معي، فإنّ وقاحته تنفع في مثل هذا الموقف.

٣٢

قال «منسي» فجأة، ونحن نمشي في ردهات «هيئة الإذاعة الأسترالية»: «بُصّ يا طيِّب. أوكّد لكْ الشابْ دا عربي». قبل أن أمعن فيه النظر، كان «منسي» قد جرى نحوه:

«اسمع يا أخ. انت عربي، مش كده؟».

كنّا خارجين لتوّنا من اجتماع على الغداء، مع المدير العام لهيئة الإذاعة الأسترالية، وعدد من المسؤولين ـ دخل «منسي» مبتسماً، وخرج ضاحكاً يقهقه. ولعله تذكر أيامه في هيئة الإذاعة البريطانية في لندن، حين كان يلهث في سيارته الـ«بَبِلْ»، من «كفرشام» إلى «بوش هاوس» يترجم ويمثل، لقاء جنيهات معدودات. ورغم سعة حيلته فإنه لم يصل إلى المدير العام، الذي كان يجلس في أفق بعيد المنال. ما أطول الطريق الذي قطعه. هذه أيضاً «هيئة» وهذا أيضاً

«مدير عام». يدخل مبتسماً، عليه معطف من الفراء، و«بدْلة» من الصوف الفاخر، وحذاء إيطالي من الجلد الغالي، لعلها «فوتشي»، هذا «منسي» آخر لمن لا يعرفه، ولكنني أعلم أنه في أعماقه لم يتغيّر، وأن هذا المظهر البرّاق، مثل الزي المستعار الذي يرتديه الممثل ليؤدي دوراً على المسرح.

رحمه اللّه. إنه الآن يمثل دور السفير، المدافع عن كرامة العرب وسمعتهم. وهو دور لم يكلفه به أحد، ولم يتقاض عليه أجراً. وقد أدّاه أحسن أداء، ونهض به على خير وجه. ولعله كان محقاً، فلو أن أحداً كلفه بدور مهم، ربما كان يؤديه على خير وجه. ولكن أحداً لم يطلب منه أي شيء. كل الأدوار التي أداها، انتزعها انتزاعاً.

تحدث أثناء الغداء كأنه مسؤول عربي كبير، قد يكون مستشاراً لحاكم أو رئيس دولة. تعمّد أن يترك الأمر غامضاً. وكان كعادته، يخلط الجد بالهزل، والصدق بالمكر، تسعفه فصاحته في اللغة، وبديهته الحاضرة، ومواهبه الكامنة.. وكان حين يحس أنه في ورطة، ينظر إليّ بتلك الطريقة التي توحي بأنني معاون له. وذلك، كما قلت، دور راق لي، فقبلته عن طيب خاطر، لأنه أتاح لي فرصة نادرة: أشارك في الحديث، وأراقب «منسي»، فكأنني ممثل ومتفرج في الوقت نفسه.

شرَّق بنا الحديث وغرَّب، وكنّا بين أناس مهذّبين مستنيرين، يقرعون الحجة بالحجة، ويدافعون بلطف، ويجادلون بذكاء. لذلك حين قال «منسي» هذا، لم يكن وقحاً ولكنه تحدَّق وكأنه يمزح: «من الواضح لنا أن وسائل إعلامكم ليست أكثر من صدى للإعلام الغربي. نفس

التحامل علينا، والازدراء بنا وتشويه سمعتنا. إنها أشياء أصبحت مملَّة... تعوَّدنا عليها».

ضحك وهو يقول «تشويه سمعتنا»، وقد استعمل التعبير عمداً، بدهاء شديد، كما خيّل لي، بدلاً من التعبير المألوف «تشويه صورتنا». لم يكن قد مضى في أستراليا أكثر من أربعة أيام، ولم يكن قد زار البلد من قبل، وليست له معرفة عميقة بما يجري فيه. إنما تلك كانت صفة في طبعه، يقول دون مبالاة، ويرمي الرّمية قد تصيب وقد تُخطئ.

كان واضحاً لي أنهم بوغتوا بقوله، ولكنهم كانوا رجالاً أذكياء ذوي دربة، فسارعوا إلى تغطية أحاسيسهم بوسائل شتى. بعضهم ابتسم وبعضهم ضحك، وقال المدير العام:

«انتظر يا دكتور مايكل! هذا ليس عدلاً! أنت تعلم أن هيئة الإذاعة الأسترالية مؤسسة مستقلة، لا تخضع لأي نفوذ. حتى الحكومة ليس لها سلطة عليها. إنها مؤسسة محايدة تماماً.. نحن نغطي الشؤون الدولية بموضوعية كاملة.. لا يوجد أي سبب يجعلنا نتحامل على العرب، أو.. نشوّه سمعتهم كما تقول».

وكأنّ الرجل أراد أن يلوذ بي فيرتاح من «منسي» برهة، فوجه كلامه إليّ:

«هل هذا هو رأيك أنت أيضاً يا مستر صالح؟».

لقد أحدثت عبارة «منسي» أثراً، هذا لاريب فيه، خاصة «تشويه

السمعة». الأستراليون أيضاً يحسُّون أحياناً أن العالم لا يأبه بهم، ولا يقدرهم حق قدرهم، ويتحامل عليهم في كثير من الأحيان. لا تكاد توجد أمّة، ليس في تاريخها شيء يسبب لها الحرج أو الخزي. اليابانيون، ومعاملتهم للأسرى في الحرب العالمية الثانية. الألمان وما فعلوه باليهود وغير اليهود. الأمريكان وضرب هيروشيما وناجازاكي بالقنابل الذريّة. الفرنسيون وما فعلوه في الجزائر. الإنجليز الذين ابتكروا معسكرات الاعتقال، وما فعلوه في فلسطين وأفريقيا، والرُّوس والصين والإسبان والبرتغال وهلمّ جرّاً. قليلة هي الأمم التي ليس في تاريخها عمل تتمنّى لو لم يكن. لماذا إذاً تُلْقى الأوزارُ على العرب، وكيف أصبحوا وكأنَّهم «الجناة» في التاريخ؟ لعلّ العرب يسألون أنفسهم أولاً، قبل أن يلوموا الآخرين.

قلت له:
«لا أعرف على وجه اليقين ماذا تقدمون في برامجكم في الإذاعة والتلفزيون، فإنني لم أقض وقتاً كافياً هنا. ولكن بعض ما شاهدته، خاصة في نشرات الأخبار، يجعلني أعتقد أن دكتور مايكل ليس مخطئاً. أما صحفكم، فمن الواضح أنها تتحدث عن العالم العربي، إما عن جهل، أو عن سوء قصد...».

وكأنّ «منسي» كان يقرأ فكري، فقد أخذ الفكرة التي كنت أنوي أن أطرحها، وانطلق بها:

«نعم. صحفكم على وجه الخصوص. لا يفتح الإنسان أي صحيفة إلاّ ويجد ذكراً لذلك الفلم التافه الذي كلّه أكاذيب، ولا هدف منه سوى الإساءة للعرب».

كانت تلك هي القضية تلك الأيام. الشغل الشاغل لوسائل الإعلام، في أوروبا وفي أمريكا وحتى في أستراليا. مثل قضية «سلمان رشدي» هذه الأيام. كل حين يخرجون بشيء جديد، يشغل الناس ويثير الجدل والبلبلة.

قال أحد المسؤولين:
«على أي حال، الخطأ خطأكم أنتم. والتقصير منكم أنتم. لا توجد «مؤامرة» للإساءة للعرب كما تتوهّمون. الأمر ليس أكثر من عدم توفر المعلومات المطلوبة في الوقت المناسب. أنتم لا تساعدوننا، ولا تساعدون أي أحد، في الحصول على المعلومات.. بل كثيراً ما تخلقون العراقيل.. وسائل اتصالكم لم تفهم بعد، أن العالم مترابط، والعصر عصر معلومات».

وأضاف المدير العام ضاحكاً، وكان أميلهم إلى الضحك:
«ثم إن العرب يفعلون أشياء غير لطيفة أحياناً.. فماذا تريدوننا أن نفعل؟ نتستر عليها؟ نفرض عليها رقابة كما تفعلون أنتم؟».

لم يدَع «منسي» هذا القول يمر دون رد، فلم يكن ذلك في طبعه، ولكنه سارع إلى القول، وهو يضحك بخبث، كما تخيّلت:
«وهل ما تفعلونه أنتم، لطيف دائماً؟».

رفع الرجل يديه كمن يستسلم في معركة، وقمنا من المائدة، وكلٌّ منا يبتسم أو يضحك. وكان «منسي» أكثرنا سعادة، فقد حمل لواء العروبة خفّاقاً في ذلك الركن القصي من أركان المعمورة. أحسنَ أداء دور لم يَكلِّفه به أحد، ولم ينلْ عليه أجراً ولم يجْنِ من ورائه شكراً. فقط، استمتاع مجرّد بأداء الدّور. لا أكثر.

كانوا رجالاً لطيفين بحق. قلنا لعلّنا تركنا عندهم أفكاراً قد تثمر ولو بعد حين. كان «منسي» يحب هذا القول ويردِّده كثيراً:

«ارْم الخبر على وجه المياه، يُثمرْ ولو بعد حين». ثم ونحن نسير في الممر الطويل، إذا بذلك الشاب.

استوقفه «منسي» وسأله:
«اسمع يا أخ. أنت عربي، مش كده؟».

نعم، كان عربياً، وكان فلسطينياً مهاجراً، يعمل في هيئة الإذاعة الأسترالية. اسمه «إبراهيم الخوري» إذا لم تُخنّي الذاكرة.

٣٣

زارنا الشاب الفلسطيني في النُّزل، مساء ذلك اليوم. كانت حقاً رمية موفقة من «منسي»، فقد أصبح ذلك الشاب دليلنا فيما بعد، فتح لنا كثيراً من الأبواب، وذلل لنا كثيراً من الصعاب، وأخذ بأيدينا في طرقات البلد الغريب، وعرَّفنا على الجالية العربية في «سدني». وقد أضاف «منسي» تلك الحسنة، إلى القائمة الطويلة من أفضاله عليَّ، وظل بعد ذلك كلّما طاب له المجلس وراق له الجو، يذكرني بأنه بذكائه وقوة ملاحظته أدرك فوراً، ونحن نسير في طرقات هيئة الإذاعة الأسترالية، بعد أن خرجنا من الغداء مع المدير العام، أن الشاب عربي.

«قول لهم يا طيّب. مش دا اللي حصل؟ انت ماشي مش واخد بالك. أنا عرفت في الحال... طيّب بذمتك مش أنا اللّي نجّحت لك المهمة؟ من غيري ما كنتش حتعرف تعمل حاجة... احكي

لهم ازاي أنا بدّعت في الغداء بتاع المدير العام. الراجل ذهل...».

كان ذلك في الرياض. كلّما أزور الرياض الآن، أول ما أصل المطار، اتذكر «منسي». أكاد أراه رأي العين. أول مرّة زرت الرياض، بدعوة من الشيخ عبد العزيز وجدته في سيّارة كبيرة ينتظر عند سلّم الطائرة. ضحك، وكنت أعلم أنه يريد أن يفهمني أن تلك الحفاوة ليست إكراماً لخاطري بقدر ما هي برهان على نفوذه الواسع ويده الطولى. كلّفه الشيخ بترتيب أمر إقامتي وتنقلاتي، وهو ينشط لمثل تلك المهام، فقام بذلك على أحسن وجه. كان رفيقي في أول عمرة اعتمرتها، والعمرة الأولى لها رهبة خاصة وذوق لا يجده الإنسان بعد ذلك. أجده كلّما عدت إلى تلك الأماكن الكريمة. أراه يسعى بين الصفا والمروه، بجسمه المثقل، وهو يكاد ينوء من الأعياء. أراه مكبّاً على أستار الكعبة. ثم وهو نائم في صحن الحرم، بين صلاة المغرب والعشاء، والناس يموجون حوله.

خرج رابحاً من زيارتي تلك، من نواحٍ كثيرة، فقد حجز جناحاً في الهوتيل بجواري، له ولزوجته، وأضاف التكلفة إلى حساب زيارتي. كان يفعل ذلك كل مرة. وفي المرات التي لم يقم فيها في الهوتيل، كان ينتهز فرصة وجودي فيحضر ثيابه للغسيل وبدله للتنظيف.

في الرياض أيضاً، صلّينا معاً. لم أكن قد اقتنعت بعد أنه أسلم حقاً. وقفت أصلي صلاة المغرب. جاء ببساطة ووقف معي. يا سبحان اللّه. كان قبل ذلك أخي، ثم ها هوذا الآن يصبح أيضاً أخي في اللّه.

لكن هذه هي المرة الأخيرة التي ألقاه فيها في الرياض. كان قد

وجد عملاً في شركة. لم يكن في حاجة إلى العمل، ولكنه يحب أن يشغل نفسه بشيء. يحب أن يكون له مكتب وحاجب وسكرتير وتلفون. ويا حبذا لو كان ذلك على نفقة شخص آخر. كان يستطيع لو أراد أن يحصل على هذه الأشياء من ماله الخاص.

أقول له:
«يا ابني ما تروح تقعد في «عزبتك» في إنجلترا. هل أنت محتاج تشتغل بمرتب؟ روح اتمتع بفلوسك قبل ما تموت وياخدوها الورثة؟».

«أموت؟ أموت دا إيه يا خوي؟ يا ابني احنا لسه ما عملناش حاجة. لسه فاضلة حاجات كتير تتعمل...».

لم يكن الموت يخطر بباله. كان مشغولاً بالحياة. يقول ضاحكاً:

«انت فاكرني باشتغل؟ دي عملية بسيطة ماتاخدش مني ساعة بالكتير. الوقت الباقي أعمل فيه أشغالي الخاصة... فين حلاقي كل التسهيلات دي؟ تلكس وفاكس وتلفونات وطباعين. وكله ببلاش».

«وإيه هو شغلك بالضبط؟».
«أحضر تقارير لمدير الشركة».
«تقارير مالية؟».

«دا شغل بيعملوه ناس تانيين. أنا مستشار خاص للمدير العام. في حاجات كتيرة. صحافة علاقات عامة اتصالات دولية... حاجات

زي دي. أنا الرجل الثاني في الشركة، بعد المدير العام مباشرة. امال أنت فاكر إيه... باعمل للمدير العام كل يوم ملخصات من الصحف الأجنبية وتحليلات سياسية والكلام الفارغ دا. اؤكد لك إن حتى في وزارة الخارجية ما يعرفوش يعملوا تحليلات زي اللي أنا باعملها».

«وإيه فايدة الحكاية دي لمدير عام شركة تجارية؟».

«إزاي يا أستاذ؟ انت فاكر التجارة بيع وشراء وصادرات وواردات؟ أنت فاكرها إيه؟ دكان بقالة في أم درمان؟ يا ابني دا شغل على مستويات كبيرة، وعلاقات وشغل حلبسّه والذي منه... ثم إن المدير العام شاب متعلم وبيفهم. دا واخد ماجستير في إدارة الأعمال من أمريكا... خسارة دا مسافر. كنت عرفتك بيه. شاب زي السكر. كان حيعجبك أوي. انت عارف ان أبوه يبقى ابن عم.. ووالدته.. وهو متجوز بنت..».

«سيبك من الحكاية دي. بذمتك الشركة دي فعلاً بتستفيد منك؟».

«إلاّ تستفيد مني! دا المدير العام متمسك بي مش عاوز يسيبني. بيني وبينك أنا ناوي أروح. على رأيك، حاعمل إيه بالفلوس؟».

تقلب في أعمال عدة في الرياض. سرعان ما يمل العمل فيتركه إلى عمل آخر. وكان الشيخ عبد العزيز التويجري، وابنه عبد المحسن، يرعيانه ويخرجانه من المآزق، ويدبران له وظيفة كلما ترك وظيفة.

كان لا بد أن أزور مكتبه. أصر على ذلك حتى أرى بعيني كم هو

مهم وكم هو ذو حول وطول، وما كنت في حاجة إلى برهان. استقبله السعاة والحجاب والعمال بحفاوة عظيمة فيما يشبه المظاهرة. يمازحهم ويناديهم بأسمائهم، وكان واضحاً أنهم يحبونه حباً حقيقياً. هكذا هو دائماً مع صغار الناس. ظلوا يتوافدون عليه في مكتبه. هذا عنده مشكلة إقامة، وهذا يريد منه أن يتوسط له ليزيدوا راتبه، وهذا زوجته مريضة، وهو ينتفش ويكبر بخليط من الزهو بأهميته وبفعل رغبة مخلصة لمساعدة ضعفاء الناس.

أخذ يلفت نظري إلى أثاث المكتب، كأنهم بشر أحياء يريد أن يعرفني بهم. السجاد والستائر والطاولة والكراسي والتلفونات والخزانات ونباتات الظل والأزهار.

«بص يا طيب.. انت خدت بالك من السجاد؟ أوعى تفتكر انه سجاد عادي دا سجاد عجمي... تحفة نادرة».

«لا يا شيخ! ويكون بكم؟».
«أوه. مبلغ كبير. اؤكد لك أن ثمنه أكثر من مرتبك في سنة كاملة».
«عجيب. وأنت اشتريته بفلوسك؟».

«ليه؟ انت فاكرني عبيط زي ما الجماعة بتوع مصر بيقولوا على الصعايدة. يا أستاذ دا من فلوس الشركة. انت عارف اني أنا الوحيد اللي عنده مكتب زي دا. أصل المدير العام يقدرني جداً... مش عاوز يسيبني...».

لاحظت التلفونات، كل تلفون بلون. ماذا يصنع الإنسان بمجموعة

من التلفونات وهو لا يسمع إلا بأذن واحدة؟ وماذا يصنع بمجموعة من السيارات؟ لكن «منسي» لم يكن شخصاً واحداً. كان مجموعة أشخاص في جلد واحد.

رأيت السيارات مصطفّة مثل خيل في اصطبلاتها أول ما دخلت داره في المسا. أصرّ على أن يأخذني في جولة، أتعرف على معالم البيت، كما يتجول الإنسان في متحف. حمام السباحة... مهم جداً عنده أن يكون في الدار حمام سباحة. كان يحب السباحة، ويسبح مثل عجل البحر، «القِرنتي» كما نقول في السودان و«سيد قشطة» كما يقولون في مصر. ثم القراجات وموديلات السيارات. نقل عدداً منها بعد ذلك إلى «عزبته» في «ساوث هامتون». الحديقة... الأشجار... النباتات النادرة... المطابخ... جناح السواقين والعمال والشغيلة... الوصائف الفلبينيات...

«إيه دا كله يا دكتور؟ دي حكاية كبيرة بلْحيل...».
«عجبك؟ إيه رأيك أن دا كله ببلاش... علاوة على المرتب».

حتماً كانت الحياة تمزح معه، فالحياة فيما يبدو تعامل كل واحد على طريقته.

كان ذلك آخر عهدي به في المملكة. لم أره سعيداً كما رأيته تلك الليلة. يضحك ويضحك ويضحك. يحمل ابنه عبد العزيز، الذي يشبهه كأنه نسخة منه، خاصة حين يضحك.

احتفى بنا حفاوة عظيمة، وتهيأ له جمهور كبير في تلك الليلة، فانطلق لا يلوي على شيء، وأنا أساعده وأنبش ذكرياته، وأعطيه أطراف المواضيع.

«احكي لهم يا طيب احنا عملنا إيه في أستراليا. دا احنا عملنا عمايل... قول الحق. مش أنا اللي قلت لك على الشاب انه عربي... قلت لي خلّينا نروح في حالنا...؟».

جاءنا الشاب الفلسطيني في المساء، وأصبح دليلنا بعد ذلك طوال إقامتنا في «سدني». ومن أياديه علينا أنه عرفنا برجل لبناني، من هؤلاء الناس الذين حين تصادفهم، تحس أن الحياة قد أسدت إليك جميلاً لا ينسى.

٣٤

تسامع الناس بوجودنا في «سدني»، ولم يألُ «منسي» وسعاً، فأسبغ على رحلتنا أهمية أكبر بكثير مما تستحق. وكانت الجالية العربية من الخلاف والشقاق والتمزق بدرجة يُرثى لها، ولعلهم ظنوا أننا جئناهم مصلحين ووسطاء خير. وما كنّا في الحقيقة كذلك، فما من أحد طلب منا القيام بتلك المهمة، ولكن «منسي» كدأبه أبداً، وجد وضعاً يتيح له القيام بدور ما، دور رسول الوفاق وإصلاح ذات البين، فهبّ من توّه للنهوض به. والعرب في طبعهم الحنين إلى أهلهم وذويهم على البعد، ولكنهم فيما يبدو، لا يطيقونهم عن قرب. كنا غرباء، وقد كانوا لو يعلمون أكثر غربة منا، فرحّبوا بمقدمنا، كما يرحب المقيم بالوافد.

أصبح الناس يتوافدون علينا، وكان «منسي» يزداد سعادة مع كل زيارة، فكان في أحسن حالاته. إنه هنا، مرّة أخرى، الممثل الرئيسي

على مسرح واسع. والدور الذي يقوم به ليس هيِّناً بل هو دور خطير، دور سفير الإصلاح، ورسول الوفاق. وكان صديقنا الفلسطيني يقف إلى جانبنا في أغلب الأحيان، يشد أزرنا ويعرّفنا على البلد والناس. والفلسطينيون بحكم وضعهم، وما فعلته الأقدار بهم أكثر من غيرهم حماسة لأن يكون العرب يداً واحدة، وإن كانوا هم أنفسهم ليسوا بمنأى عن الخلاف والشقاق.

جاءنا جورج سمعان وأخوه ميشيل، وهما لبنانيان، وقد كانا ولعلّهما ما زالا يصدران صحيفة باللّغة العربية، علمنا منهما أنها توزع ما بين عشرين إلى ثلاثين ألف نسخة. كانت كما أذكر، صحيفة رصينة إلى حد كبير، تتوجه إلى الجالية العربية ككل، وتبتعد بقدر الإمكان عن مزالق الخلاف والفرقة. وقد شكيا لنا من ضعف الموارد وقلة الدعم، علماً بأنهما يقومان بجهد لا ينكر، في ربط الجالية العربية في أستراليا بعضها ببعض، وربطها بالوطن العربي. وقد بذلت ما في وسعي بعد عودتي في مساعدتهما، ولعلهما حصلا على بعض العون من دول الخليج.

زارنا أناس يعملون في مؤسسات الدولة، وآخرون يعملون أعمالاً حرة، وبعضهم يعمل في وسائل الإعلام والاتصال. ونحن سعينا للتعرف على إمام المسجد، ومطران الجالية المارونية في أستراليا.

إنني أذكر جيداً ذلك الإنسان الكريم. رجل بسيط وقور مطمئن النفس، قلبه عامر بالخير، عليه سمت أحبار النصارى الأقدمين، كما يصفهم القرآن الكريم. كان عالماً بالفقه والحديث وتاريخ الإسلام وكلام العرب، فقد نال درجة الدكتوراه في الفقه الإسلامي من جامعة السوربون. وقد ظل بعيداً عن الصراعات العربية وقاوم كل

وسائل الضغط والإغراء، كي ينحاز إلى فريق من الفرق المتحاربة في لبنان.

كان تعداد الجالية العربية تلك الأيام، زهاء ثلاثمئة ألف، أغلبهم في المدينتين الكبريين «سدني» و«ملبورن». وكان اللبنانيون أكثرهم عدداً، فقد بدأت هجرتهم إلى أستراليا منذ القرن الماضي، تحت وطأة الحروب والمجاعات، كما يحدث اليوم. بعضهم امتزج بالجاليات الأخرى الوافدة، وآخرون ظلوا يتشبثون بهويتهم اللبنانية، وكلهم يحمل حنيناً دفيناً لذلك الوطن الجريح. يأكلون الكبة والتبولة والشاورما، ويطربون لأغاني وديع الصافي وصباح وفيروز.

يليهم من ناحية العدد المصريون، وهؤلاء هاجروا حديثاً نسبياً، لم يقطعوا بعد روابطهم بمصر، يعودون إليها كلما استطاعوا، وتحس أنهم يفضلون العودة إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، وبعضهم يعود بالفعل.

ثم الفلسطينيون. وهؤلاء كما هو معروف، تفرقوا في البلاد أيدي سبأ. خرجوا موجات موجات، كلّما ألّمت بهم قارعة في الوطن الأم، هاجروا طلباً للمأوى والأمن ولقمة العيش. تجدهم حيثما ذهبت، في كندا وأمريكا وفي كل بلاد أوروبا. على وجوههم شيء يميزهم عن بقية المهاجرين العرب. أكثر عزماً وأكثر حزناً وأكثر مرارة. يطوون أجنحتهم على حلم، يبدو لهم قريب المنال أحياناً، وعسيراً أحياناً.

وجدنا أيضاً أعداداً أقل من اليمنيين والسوريين والصوماليين والمغاربة

وبعض الأقباط السودانيين. ولا بد أن عدد السودانيين قد زاد الآن. وكلهم أصحاب خبرات ومهارات، وكثيرون منهم يحملون شهادات عالية في الطب والهندسة والزراعة وغيرها. وبعضهم أساتذة في الجامعات. ذلك لأن هذه البلاد لا تُدخل إليها إلا من تستطيع أن تستفيد منه.

وكأنما العالم العربي لم يكتف بما فعله بنفسه في عقر الديار، فلاحق هؤلاء المهاجرين بانقساماته وحزازاته وأباطيله. ولعلهم لو تركوا وشأنهم على الأقل، لعلّ الأحوال كانت تستقر بهم في هذا البلد البعيد. إنهم جميعاً غرباء هنا، مشغولون بهموم الحياة، وهم في نظر المجتمع الاسترالي شيء واحد. وربما كان ينتج منهم خير ينفع العالم العربي كله.

لكننا وجدنا صورة طبق الأصل للعالم العربي. الخلافات نفسها، والصراعات نفسها، والتفاهات نفسها. عالم يموج بعضه في بعض، يتلقى أصداء الحزازات والإحن والحماقات في الوطن الأم، إن صح القول، فكأنهم حيوانات فقدت حكمة البقاء الغريزي على الأقل. أو كمسافرين في سفينة تصارع الموج، وبعضهم آخذ بخناق بعض.

إلاّ أن إمام المسلمين ومطران المارونيين كانا على وفاق. كانا صديقين، يتزاوران ويتعاونان على البر والتقوى. لذلك كنا نجتمع بالناس في دار الإمام مرّة، وفي دار المطران مرّة.

يُقال إن الحال قد تغيّر الآن، في العالم العربي، وفي أستراليا بطبيعة الحال. يا ليت. لكننا سوف نصدّق حقاً، حين تضع الحرب أوزارها

في لبنان وفي السودان، وفي سائر بلاد العرب والمسلمين. حينئذٍ سوف تطيب الليالي لسمّارها، وتعود الطيور لأوكارها، وحتى ذلك الحلم العسير، حلم العودة إلى فلسطين لن يكون بعيد المنال.

نبذة عن المؤلف

- ولد في صيف عام ١٩٢٩ في قرية الدبة في الشمال الأوسط من السودان.

- تلقى تعليمه الأولي في قريته، والأوسط في مدينة بورتسودان في شرق السودان، والثانوي في مدرسة «وادي سيدنا» بأم درمان، والجامعي في «كلية الخرطوم الجامعية» (جامعة الخرطوم فيما بعد).

- عمل أستاذاً لفترة قصيرة في مدرسة وسطى بمدينة رفاعة (وسط السودان) وفي معهد «بخت الرضا».

- التحق بهيئة الإذاعة البريطانية (BBC) عام ١٩٥٣، ثم انتقل إلى اليونسكو ثم إلى قطر حيث قضى سبع سنوات مديراً لوزارة الإعلام القطرية، ثم مستشاراً لوزير الإعلام القطري.

ـ من مؤلفاته: **نخلة على الجدول، دومة ود حامد، عرس الزين، موسم الهجرة إلى الشمال، مريود وضو البيت.**

ـ متزوج وله ثلاث بنات.